

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وبه أستعين

سنة خمس وسبعين وخمسمائة

فيها غلت الأسعار جداً بالعراق واشتد المحل وكثر الجذب ، وكانت الغلات كثيرة والحبوب موجودة غير أن الناس رفعوا أيديهم عن البيع ، وسبب ذلك أن ظهر^(١) الدين أبا بكر [منصور] بن العطار - صاحب الخزن - كان قد تحكم في دولة الخليفة تحكما زائداً ، واستولى على جميع المعاملات الواسطة وضمن^(٢) البلاد سائرهما ، ومنع البيع من خزائن الغلات والحبوب ، فاشتدت بغضته في قلوب الناس وخاصة أرباب دولة الخليفة ، وكانوا يقولون : « سبب غلو الأسعار منسعه لبيع الغلات » .

وفيها كثر الوباء حتى مات من الخلق ما لا يحصى كثرة .

(١) هو ظهر الدين أبو بكر بن منصور بن نصر بن الحسين المعروف بابن العطار المتوفى بالعقوبة في هذه السنة (٥٧٥هـ) من قبل الخليفة الناصر لدين الله ، وقد أشار ابن كثير في البداية والنهاية ٣٠٥/١٢ الى أن مصرعه أدى الى تمكن الامر للخليفة وعظم هيئته في البلاد ، وذكر ما يشتم منه فبح سيرته ، على حين أثنى عليه من هو أقدم منه وأقرب الى عصره ونعنى بذلك ابن الأثير في الكامل ١٨٧/١١ ، ثم قفاه في ذلك ابن الوردي في تنمية المختصر ٩٠/٢ . ويعمل ابن الوردي ما أصاب ابن العطار من تكبة بحمد الناس له لما بلغه من المكانة ، ومن ثم استشهد بالبيتين التاليين :

إذا نلت الملا راع الرعايا

فان القوم أعداء المعالي

يرون على الفتى ذنباً عظيماً

وإن أمنوه في نفس ومال

(٢) ضمن هنا بمعنى احتكر .

وفىا بسطت يد الشريف يمين الدين الهاشمى مشرف الديوان العزيز فى الدولة ، ووقعت المشاحنة بينه وبين ظهير الدين بن العطار .

وفىا مرض المستضى^(١) بأمر الله واشتد به المرض وكثرت الأراجيف بموته ولم يتحقق الناس ذلك ، وكانت الأسواق تغلق فى أكثر الأوقات لايحسر أحد أن يبيع ويشترى ، فكانت وفاته أول ليلة من ذى القعدة من السنة ، وكانت خلافته تسع سنين وستة أشهر وأحدأ وعشرين يوماً .

أولاده : أبو العباس أحمد الناصر لدين الله ، وأبو منصور .

وزيره : رئيس^(٢) الرؤساء .

(١٢) خلافة الناصر لدين الله

أمير المؤمنين صلوات الله عليه ، وذكر مختصر من إيلائه ومحاسن سيرته وذكر ما تجدد فى أيامه للبيت الأيوبى من الفتوحات والغزوات وغير ذلك والشام ومصر واليمن ، ذكرته مفصلاً ، أختمه به كتابى هذا الموسوم بكتاب « المضمار ، وبالله المستعان وهو حسبى ونعم الوكيل .

هو أبو العباس أحمد الناصر^(٣) لدين الله أمير المؤمنين — ثبَّت الله

(١) هو الذى عادت الخطبة باسمه فى الديار المصرية والشامية والنفور ، على أن الوارد فى أبى المحاسن : النجوم الزاهرة ٨٥/٦ أنه مات فى ثالث ذى القعدة ، أما ابن كثير فيشير فى البداية والنهاية ٣٠٤/١٢ إلى أن وفاته كانت فى سلخ شوال ، وذكر ابن الوردى تنمة المختصر ٨٩/٢ أنها كانت ثمانى ذى القعدة، واكتفى ابن العماد الحنبلى : شذرات الذهب ٢٥١/٤ بقوله « ذى القعدة » فقط .

(٢) هو محمد بن عبد الله بن هبة الله بن المظفر المتوفى سنة ٥٧٣ هـ .

(٣) كانت وفاته فى رمضان ٦٢٣ هـ .

دعوته — بن الإمام أبي محمد الحسن المستضيء بأمر الله ، بن الإمام أبي المظفر يوسف المستنجد بالله ، بن الإمام أبي عبد الله محمد المقتنى لأمر الله ، بن الإمام أبي العباس أحمد المستظهر بالله ، بن الإمام أبي القاسم عبد الله المقتدى بالله ، بن محمد ذخيرة الدين — وليس بإمام — بن الإمام أبي جعفر عبد الله القائم ، بن الإمام أبي العباس أحمد القادر بالله ، بن الإمام جعفر المقتدر ، ابن الإمام أبي العباس المعتضد ، بن محمد الموفق — وليس بإمام ، بن الإمام أبي الفضل جعفر المتوكل ، بن الإمام أبي أسحق محمد المعتمد ، بن هارون الرشيد ، بن محمد المهدي ، بن أبي جعفر المنصور ، بن محمد ، بن علي ، بن عبد الله ابن العباس بن عبد المطلب بن هاشم ، بويج له يوم الأحد مستهل ذي القعدة من السنة المذكورة صبيحة اليوم المذكور ، وتولى عقد البيعة ذو الرياستين مجد الدين أبو الفضل [هبة الله بن علي بن هبة الله] بن صاحب أستاذ^(١) الدار وظهير الدين أبو بكر منصور بن العطار صاحب الخزن ، وحضر في البيعة العلية (٢ ب) ضياء الدين الشهرزوري^(٢) ، أتفق ذلك أوان وصوله برسالة الملك الناصر صلاح الدين ، وخطب^(٣) له بمدينة السلام ببغداد ، ونثرت الدنانير على المنابر بجوامعها ، وسُيرت الكتب مع الرسل إلى البلاد الإسلامية ، فأرسل صدر^(٤) الدين عبد الرحيم بن اسمعيل [ابن اسمعيل

(١) كانت توليته الاستاذية للمستضيء بالله سنة ٥٧١ هـ ووفاته عام ٥٨٢ هـ ، راجع ابن الأثير الكامل ١٧٧/١١ ، ٢٣٠ ، وأبو المحاسن: النجوم الزاهرة ٧٦/٦ .

(٢) هو أبو الفضائل القاسم بن يحيى بن عبد الله ، وكان صلاح الدين الأيوبي قد رتبته لرسالة بينه وبين الخليفة لقربه من قلب الخليفة ، وقد مات سنة ٥٩٩ هـ ، انظر ذيل الروضتين ص ٣٥ - ٣٦ ، أبو المحاسن . النجوم الزاهرة ١٨٣/٦ .

(٣) يعني للخليفة الجديد .

(٤) كان هو الذي تولى تدبير أمر طغرل شاه بن ارسلان شاه ، وتسميه المراجع العربية أحياناً بصاحب بلاد الجبل والرى أصفهان وأذربيجان ، راجع النجوم الزاهرة ١٠٠/٦ .

ابن أبي سعد [شيخ الشيوخ] [النيسابورى] إلى أتابك بهلوان [محمد]
 ابن أيلدكز^(١) بهمدان ، فبت الدعوة الهادية في تلك البلاد من أصفهان
 وجميع بلاد خراسان وأذربيجان ، وسُتيرت رسل الخلافة أيضاً إلى الملك
 الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب فأقام الدعوة الهادية الإمامية في جميع
 البلاد والثغور والشام والديار المصرية ، وحضر شعراء الديوان العزيز
 على جارى العادة لتهنئة مولانا الإمام الناصر لدين الله أمير المؤمنين عند
 جلوسه في الخلافة في ذى القعدة ، فأنشد كل منهم كلبته ، فمن ذلك الأجل
 أمين الدولة محمد بن عبد الله سبط^(٢) التعاويذى ، وكان من أفاضل الشعراء
 المقدمين ، ذكرتها بتامها لامتحسانها وهى :

طاف يسعى بهاعلى الجلّاس
 كقضب الأراكة الميَّاس
 بدُرُ تم غازلت من لحظه لب
 لة نادّمته غزال الكنتاس
 ذلّته لى المدام فأمى
 لينّ العطف بعد طول شماس
 بات يجلو على روضة حُسن
 بت منها ماين ورذ وآس
 أمزج الكأس من جناهُ ، وكم لب
 لة صدّ مزجت بالدمع كاهى
 لايتب ذلك الحبيب بما بت (م)
 أعانى من لوعة وأقاسى

(١) الذكر « فى الأصل .

(٢) الوارد فى النجوم الزاهرة ١٠٥/٦ محمد بن عبيد الله هذا وقد كانت وفاته سنة

[١٣] قلّقى من وشاحه وبقلى
ما بخلخاله من الوسواسِ
أىّ برج لوكان لى مسعد في
هـ وجرح لو كان لى منه آسى
مَنْ تناسى عهد الشباب فإنى
لحميد من عهده غير ناسى
أخلّق الدهر جدّتى وغدت من
مكوبة بعد مرّة أمراسى
يانهار المشيب من لى - وهى
هات - بلبيل الشيبة الديمة
حال بينى وبين لهوى وإطراً
بى دهر أحال صبغة راسى
ورأى الغانيات شبي فاعرض
نّ وقلن : الشباب خير لباسى
كيف لايفضل السواد وقد أض
جى شعاراً على بنى العباس
أمناء الله الكرام وأهل ال
جود والحلم والتقى والباس
علماء الدين الحنيف وأعلام
يم الهدى والضراغم الأشواس
أيد الله دينه بجمال
منهمو شُمَخ الجبال رواسى
واصطفاهم من كل أغلب مشبو
ب الذراعين ، للعدى فرأس

فهمو الأمرين بالعدل ، والد
 حاكمون [الناس ^(١)] بالقسطاس
 ولقد زينتِ الخلافةُ منهم
 بإمام الهدى أبي العباس
 ملكٍ جلّ قدسه عن مثال
 وتعالى آلاؤه عن قياس
 هاشمى له زئير ينمى :
 الأسود الزئير في الأخياس
 وسماح يُغنى البلاد إذا الآن
 سواء ضنّت بصوبة الرّجاس
 [٣] جمع الأمن في إيالته ما
 بين ذئب الغضا وظبي الكناس
 وعنى خاضعا لعزته كلّ (م)
 أبى القيادة صعب المراس
 بثّ في الأرض رافةً بدلت وحـ
 شةً سارى الظلام بالإيناس
 غادرت جفوةً الليالى صفوا
 وألانت قلبَ الزمان القاسى
 بيدِ الناصر الإمام استجابت
 بعدّ مطلٍ منها وطول شماس ^(٢)
 ردّ تديرها إليه فأضحى
 ملكها وهو ثابت الأساس

(١) ساقطة في الأصل وقد أضيف ما بين الحاصرتين ليستقيم المعنى والوزن .

(٢) أمامها في الهامش « مكاس » .

يالها بيعة أجذت من الإنس
 سلام بالي رسومه الأدراس
 ولي الله أمرها فله المنه
 فيها عليه لا للناس
 جمعنا على خليفة حق
 نبوي الأعراق والأغراس
 في مقام ذلت لهيته الأء
 ناق ذل التفاد للهرماس
 زال فيه الحجاب عن ملك عا
 ري من العار ، للتقى لباس
 ورأينا برد النبي على منه
 ككب طود من الأئمة راسي
 مالياً هديه مواقف من نو
 ر جلال يضي كالنبراس
 فله في الرقاب عهد ولام
 محكم العقد محصد الأمراس
 يا مبيد العدى ويا طارد المح
 ل نداء ، وقاتل الإفلاس
 حجة الله أنت والسبب المم
 سدود ما بينه وبين الناس
 أنت أحييت رمة العدل والجم
 ود وأنشرتها من الأرماس
 (١٤) جدت قبل السؤال عفوا وكأى
 من يد لا تدر بالآبساس

وأرحمت الزوراء من جَوَورِ مزوّر
 (م) عن الخير فاجر مكّاس
 أنفأ للإسلام منه ومن أشيا
 سباعه ، عصبة الحنا الأرجاس
 ردّ في نحوه انتقامك ما فوّ
 قه من سهامه الانكاس
 دُنست برهمة بأفعاله الدن
 يا فطهرتها من الأدناس
 بك عاذت من شرّ شيطانه الو
 سواس فيها بمكرة الحناس
 واشتكت دأها العضال فآلفه
 لك لأدوائها الطبيب الآسى
 فابق للدين ناصراً ، وارم بالإر
 غام جدّ الأعداء والأنعاس
 واستمعها عذراء شرط التهانى
 واقترح الندمان والجلاس
 حملت من أريج مدحك نشرأ
 هى منه مسكية الأنفاس
 مدحاً فيك لى ستبقى على الد
 هـر بقاء التنزيل فى الأطراس
 ما أميطت راحه يراع وما خط
 ت يمين رقصا على قرطاس

وبعد البيعة الشريفة بأيام برز الأمر الشريف ببسط يد مجد الدين.
 ابن الصاحب وحُكّم فى الدولة ، ونفذت أوامره فى جميع أرباب الدولة،

وتقدم إليه ببيع الغلات والحبوب على الناس ، ففتح الخزائن وأطلق البيع فيها ، وأمر أن يُعطى الأجناد أرزاقهم من الخنطة والشعير والحبوب ، ففعل ذلك ، فرخصت الأسعار وكثرت الخيرات وفرّج الله سبحانه وتعالى عن الناس ما كانوا فيه من القحط والمحل (٤ ب) وشدة الجوع ببركة قدومه^(١) وإيالاته الميمونة ، وأنفذ إلى البلاد الواسطة السفن الكبار مملوءة طعاماً من سائر الحبوب ، وتلا ذلك تواتر الأمطار والمدود وكثرة الخصب ، وانقضت سنو^(٢) الجذب عند ولايته ، وكان الناس يسمون أيامه « العيسوية » لذهاب ما كانوا فيه من شدة القحط بعد أيامه الزاهرة ، زبدت شرفاً .

* * *

ذكر (٣) وقعة ظهير الدين بن المطار وقتله

وكان هلاكه يوم الخامس من ذى القعدة .

ذكر السبب في ذلك :

كان خالص^(٤) الخادم من خواص الحضرة الشريفة ، فبرز الأمر العالى أن يوقع له بلحف الجبل والبسندنجين^(٥) وما يجرى معها فنفذ أستاذ الدار أبو الفضل بن الصاحب إليه يأمره بالتوقيع لخالص [الخادم] كما أمر أمير

(١) في الأصل « قدمه » .

(٢) في الأصل « سنى » .

(٣) أمامها في الهامش « محنة ظهير الدين بن المطار » وهذه العبارة بخط كاتب الصفحة الاولى من المخطوطة .

(٤) هو مجاهد الدين خالص بن عبد الله الناصر خادماً الخليفة الناصر لدين الله ، وقد سلم اليه الخليفة مماليكه الخواص ؛ وكانت وفاته سنة ٥٨٤ هـ . هذا وقد اكتفى ابن الأثير : الكامل ١١/١٢ في ترجمته بقوله « خادم الخليفة وكان كبير أمير ببغداد » . (٥) بلدة في طرف النهر وإن كثيرة الحال ، راجع ابن عبد الحق البغدادي : مراصد الاطلاع ٢٢٥/١ . أما لحف الجبل (بكسر اللام وسكون الحاء) فصقع من نواحي بغداد وذكر مراصد الاطلاع ١٢٠١/٣ أنه سمي بذلك لانه في لحف جبل همدان ونهاوند ، وقال أيضاً انه يعرف بجبل حميرين ، وجاء في محيط المحيط أن لحف الجبل أسفله .

المؤمنين ، فاستعظم ذلك ولم يمثل المراسم النبوية ، فكان في جواب ذلك التقدم بالقبض على ابن العطار ونقله إلى التاج العتيق ، فُعَذَّب بأنواع العذاب ومات بعد أيام ، فحمل ليلاً إلى دار أخته ، فجعلته في تابوت وأرادت إخراجه خفية لئلا يعلم به أحد ، فجعل أستاذ الدار على إخراجه عينا من حيث لا يعلم به ، ونبه الأعوام^(١) على إخراجه ، وأوقف جماعته على باب النبوي^(٢) ينتظرون خروجه ، وكان الناس يعضونه لما كان يبدو منه في سنى المحل من منع البيع العام على الناس والضمانات الجارية في أيامه ، [و] ما كان يجرى منه في حق الأجناد والممالك ، فلما خرج تابوت ابن العطار وليس وراءه أحد يؤبه له ووصل خارج باب النبوي من دار الخليفة أشار بعض من كان العين على خروجه إلى العوام [١٥] والممالك : « هذا تابوت ابن العطار » ، فتكاثر العوام على أخذه ، وألقى من رهوس الحمالين وكسر ، وأخرج من التابوت ومزقت أكفانه ، وربطوا في إحدى رجليه حبلاً من ليف ، وجعلوا يسحبونه في الأسواق والدروب بمدينة السلام ، وكانوا ينادون عليه ، وفعل به كما فعل بابن القرايا المشد ، حتى إن من الناس من قطع خنصره وأذنه ، وكان ذلك في الخامس عشر من ذى القعدة^(٣) كما ذكرنا .

* * *

استدعاء نحر الدولة بن المطلب بين يدي الناصر لدين الله لئيستوزر ، وذلك في الشهر المذكور من السنة :

كان نحر الدولة بن المطلب رجلاً عالماً زاهداً ورعاً كثير المعروف مشهوراً بالصلاح والتقى ، فلما كانت الأيام المستعجدية — سقى الله عهدها

(١) يقصد بذلك العامة .

(٢) هو أحد ابواب بغداد ، ويستفاد مما سيرد بعد في هذه المخطوطة أن قضاء الملوك هم الذين كانوا يدخلون منه ويقبلون الأرض عنده قبل دخولهم على الخليفة ، راجع أيضاً Blochet: Histoire d'Egypte de Maqrizi, p. 192.

(٣) في الأصل « ذى الحجة » والصواب انبثناه بالتن .

الرضوان - دعاه ليستوزره فامتنع ، وطلب الإقالة فلم يفعل ماأمر ، وقصته مشهورة بذلك ، فلما كانت الأيام المستضيئة طواب بما طولب به من قبل ، فسأل أن لا يكلف ذلك ، فلما أنعم الله تعالى على عباده بالأيام الناصرة لدين الله أمر بإحضار نحر الدولة بن المطلب ، فحضر بين يدي السدة الشريفة النبوية وخدم ، فلما استقل به المكان تقدم إليه أمير المؤمنين بأن يكون له وزيراً ومشيراً لمكانته من الدين والعلم والبيت^(١) ، فلما سمع كلامه قبل الأرض وخدم وقال : « يا أمير المؤمنين : المملوك^(٢) رجل شيخ وما يجوز أن يفتح له كُتَّاباً بعد العصر ، فقال له بهاء الدين صندل الخادم : « أجب أمير المؤمنين ، ، فقال^(٣) : « ليس لك في إجابتي مصلحة ، [هـ] لأنني لو قبلت هذه الولاية ما كنت أقرّك على ما يدرك من الإقطاع والولايات بل كنت أجريك على قاعدة بلال وأزيل عنك هذه الثياب وأمنعك من الركوب وبين يديك سيوف مشهورة ، ، فضحك أمير المؤمنين من قوله وقال له : « تشير عليّ بمن يصلح ؟ ، فقال : « هذا أصلح من عندك ، ؛ وأشار إلى مجد الدين بن صاحب وهو إذ ذاك أستاذ الدار العزيزة ، فضاق صدر أستاذ الدار من قول نحر الدولة ولم يعجبه ذلك ، فقال له^(٤) أمير المؤمنين : « لم لا يرضيك قوله وهي^(٥) أرفع درجة ؟ ، ، فقال « يا أمير المؤمنين ، لا أبيع حضوري في هذه الخدمة بالدنيا وما فيها ، ، وسأل أن يقرّ على خدمته - وهي أستاذية الدار - فأقره على ذلك ، وكان أعظم الناس مكانةً عنده إلى أن قتل^(٦) .

(١) أي بيت بنى العباس .

(٢) يعني بذلك نفسه .

(٣) الكلام هنا موجه الى صندل الخادم .

(٤) الضمير هنا عائد على مجد الدين بن صاحب أستاذ الدار .

(٥) يعني بذلك وظيفة الوزارة .

(٦) كان مقتله في ربيع الاول سنة ٥٨٣ هـ بوشاية سعى بها أحد صنائعه لدى الخليفة معبها لديه أفعاله ، وقد وجدت هذه البوشاية قلباً مفتوحاً لانه كان يراه صاحب الامردونه راجع ابن الاثير : الكامل ٢٣٠/١١ .

ثم قال له : « شَرُّ علينا بمن نوليه ، فقال نخر الدولة : إن أمير المؤمنين
إن يُؤوّل سليمان بن جاووش نائب وزارة فرأيه أعلا ، ، فأحضر سليمان
بن جاووش — وكان يلقب بحسام الدين — إلى التاج الشريف ومن كان
يختص بالديوان العزيز من أرباب الدولة والأجناد ليقضوا شهر^(١)
المستضى بالله ، رحمة الله عليه ورضوانه .

* * *

وكان على حسام الدين بن جاووش قلنسوة فخلع عليه جبة وعمامة بيضاء ،
وخلع على أرباب الدولة كافة في ذلك اليوم ، وركب مُورّتب نائب وزارة ،
فبقى ينوب في الديوان العزيز شهراً ، فوجد عليه أستاذ الدار ابن الصاحب
لكونه كان يقف في تقدّماته ، فعزله ورّتب عوضه ابن البخاري وذلك في
محرم سنة ست وسبعين ، وسنذكره إن شاء الله تعالى .

* * *

وفيها أقطع آل تنبه الشطرنجي واسطا ، واعطى قطرمش شحنة
بغداد أجمع .

وفيها صرف ابن طلحة من حجة الباب الشريف ، ورّتب عوضه قوام
الدين بن زيادة .

وفيها رتب ابن شبيب صاحب مخزن ، ورّتب زين الدين مشرف مخزن
أيضا ، ورّتب ابن جعفر صاحب باب^(٢) المراتب ، وافر أبو علي بن الوكيل

(١) المقصود بذلك تكريم المستضى بعدد فاته بزيارة قبره ، وهذه عادة متبعة في كثير
من البلاد الإسلامية .

(٢) راجع رسوم دار الخلافة لابن المحسن الصائب (تحقيق الأستاذ ميخائيل عواد)
ص ٢٠ - ٢١ .

على عمله صاحب ديوان ، وأقر أمين الدين مهيمنًا على إشراف الديوان العزيز .
وفيها خلع التشريفات الجميلة على آل تنبه الشطرنجي ، وقطر مش شحنة ^(١)
بغداد ، وسيف الدين طفلو شحنة الخواص ، ومُيزوا على جماعة الممالك
والأمراء .

ذكر ما تجدد للسلطان ^(١)

بالشام ومصر في هذه السنة من الأحوال والفزوات

ودخلت هذه السنة والسلطان نازل ^(٢) على تل القاضي بيانياس ^(٣)
وعسكره المنصور في كل يوم يصبحون بلد العدو ويشنون الغارات
وينقلون ما يجدونه من الغلات ، وكان العام كثير الجذب حتى لم يبق بتلك
البلاد لهم إلا السير .

وكان المقدم على العسكر عز الدين ^(٤) فر خشاه [بن شاهناه بن أيوب]
ابن أخي السلطان ، وكان يخيمه على بعد من الرادق السلطاني قدّامه ، فجاء
إلى السلطان ومعه جماعة من الأمراء وقد أجمعوا رأيهم على أن يغيروا على

(١) هو القائم بملاحظة الأمن في البلد وعمله عمل الشرطة اليوم راجع في ذلك :
Dozy : Supp. Dict. Ar.

(٢) السلطان هنا هو صلاح الدين الأيوبي .

(٣) كان السبب في ذلك أن بلدوين ملك بيت المقدس خرج لتصيد الماشية التي كانت
في طريقها من دمشق إلى بيانياس للرعى ، انظر في ذلك :

Runciman : History of the Crusades, vol. II, p. 419

على حين أن القرقيزي : السلوك ٦٦/١ يشير إلى أن الصليبيين استغلوا فرصة انشغال
صلاح الدين بعمليته وبنوا حصنا في مخاضة بيت الاحزان ، أما لين بول :

S. Lane-Poole : Saladin, p. 157. فيهمل الرايين ويرجع السبب في ذلك إلى

فشل صلاح الدين في حمل ملك الفرنجة بالطرق السلمية على التراجع عن مشروع
عدواني أعد ضد المسلمين .

(٤) قرية قرب دمشق تحت الجبل الذي في غربها ، هكذا عرفها صاحب مراصد
الاطلاع ، ١٥٨/١ ، انظر Dussaud : Topographie Historique de la Syrie, pp. 390-391.

(٥) كان ينوب عن عمه صلاح الدين بدمشق وكان موضع ثقته ، وقد مات في أول
جمادى الآخرة سنة ٥٧٨ هـ ، وسرد كثيرًا في صفحات هذا الكتاب ، انظر أيضا ابن
الثير : الكامل ٢٠٠/١١ ، والقرقيزي : السلوك ٧٩/١ .

بلد العدو في ليلتهم بكرة غدهم ويرحلون عن ذلك المكان ، فصوّب لهم السلطان رأيهم وقال : « نعم الرأي الذي رأيتموه ، والرأي أن تنهضوا في هذه الليلة وتزعموا على دخول بلد الفرنج ، فتجمعون ماتخلف في مواضعها المتفرقة ، وإذا عدتم سالمين إن شاء الله تعالى رحلنا [٦ ب] صوب البقاع ^(١) » .

* * *

ذكر وقعة مرج عيون (٢)

وكانت يوم الأحد ثامن ^(٣) محرم ، ولما نهض المسلمون ليلة اليوم المذكور أصبح السلطان بكرة يومه راكبا ومعه صمصام الدين أجكك والى بانياس في موكب خفيف وجمع كثير ، ووقف على الطريق فوجد في تلك الغياض سروحا من الأبقار والأغنام جافة ^(٤) ، وقصده في تلك الحال راع فأخبره أنه شاهد عسكر الكافر قد عبروا بالقرب على قصد العلافه ، فاستبعد السلطان ذلك وقال : « لو كان ذلك صحيحا لجانا الجاسوس » ، فبينما هو كذلك إذ جاءه من أوائل العسكر من أخبره بصحة الخبر ، فرجع إلى الخيم وقت الظهر ، وكان في أسطبله خيول شتى عتاق وغير عتاق ، فبذلها لخواصه وقال : « اركبوا وأدركو العدو » . وصاح بعسكره وحلقته فصار فيهما موقفا بالنصر ، فأشرف على القوم وهم ^(٥) في ألف رخ وعشرة آلاف

(١) تقع فيما بين حمص ودمشق وهي كثيرة القرى غزيرة المياه ، راجع مراصد الاطلاع ، ٢١١/١ و Dussaud : op. cit. p. 396 et seq.

(٢) في الاصل « العيون » ، راجع ياقوت : معجم البلدان ٤/٤٨٨ . انظر في هذه الوقعة Grousset : Histoire des Croisades, t. II, pp. 675-678.

(٣) هكذا أيضا في المقرئى السلوك ١/٦٨ ، ولكنه « الثاني » في الروستين ١٠/٢ ، ولاحظ أن التوقيعات الالهامية من ٢٨٨ جملة أول المحرم من هذه السنة هو الجمعة ويوافق الثامن من يونيو ١١٧٩ م ، راجع Grousset : Histoire des Croisades, II, p. 675.

Runciman, op. cit. II, p. 420. (٤)

(٥) العبارة « ألف ومع ... وراجل » في السطر التالي واردة بالنص في المقرئى : السلوك ، ٦٨/١ ، س ٢ - ٣ .

مقاتل ما بين فارس وراجل ، وكان في جملتهم [بادين^(١)] بن بارزان ،
فبرز في مقدمة تمهم وحملوا حملة واحدة كالجبل العظيم وكادوا أن يظفروا ،
وطعن فيها صمصام الدين أجك ، فثبت السلطان أمامهم وردهم إلى ورائهم
فولوا الأدبار منهزمين فركبهم السيف ، فأسروا من كان له أجل حصين ،
ودخل الليل ونجا ملكهم هاربا ، فذكر أنه حمله أحدهم على ظهره وسرى
به تحت الليل ، ورجع^(٢) السلطان إلى مخيمه وقد مضى من الليل أكثره ،
ثم أذن بتقديم الأسارى ، فأول من قدم منهم « بادين بن بارزان » ، ثم « قديم
أود^(٣) » ، مقدم [١٧] الداوية الكبير وكان مشهوراً شجاعاً شديد البأس ،
وأحضر « ابن القومصية^(٤) » ، وأخو صاحب جبيل^(٥) وكان كثير النهوض
إلى ثغور الإسلام ، وأحضر جماعة من مقدميهم الأكابر وقيدوا بالقيود
الثقال ، ثم عرض المأسورين فكانوا مائتين ونيفا وسبعين من الفرسان
المقدمين سوى من أسرهم أسرته وكان في خيمته ولم يسمع به ، وسوى من
لم يذكر من الاتباع ؛ ثم نقل الأسارى إلى دمشق فاعتقلوا .

فأما ابن بارزان^(٦) فإنه^(٧) — بعد سنة — بذل في نفسه مائة وخمسين

(١) هو بلدوين الابلينى Baldwin of Ibelin. صاحب الرملة ، راجع
Lane-Poole : op. cit. p. 157.

(٢) عبارة السلوك ٦٨٨/١ س ٤ — ه وردت على النحو التالى « وعاد السلطان الى
مخيمه وقد مضى اكثر الليل وعرض الاسرى فقدم اولهم » .

(٣) هو المعروف باسم Odo of Saint Amand كبير مقدمى الداوية الا
ذلك ، ويرى البعض أن اندفاعه وطيشه كانا السبب الاكبر فى تلك الهزيمة النكراء ، هذا
ويستفاد من مقال كتبه Albon : La mort d'Odon de St. Amand
(Rev. de l'Orient Latin, t. XII, pp. 278-288) ان اود هذا لم يمت فى

الحبس .

(٤) المقصود بذلك Hugh of Galilee وكانت امه كونتة طرابلس وقد افتدته فيما بعد
بخمسة وخمسين ألف دينار صورية كما سجد فى النص اعلاه بعد قليل ، انظر ابن واصل :
مفرج الكروب ٧٦/٢ .

(٥) بلد فى شرقى بيروت ، مرادى الاطلاع ٣١٤/١ ، 383 ، Dussaud : op. cit.
وياقوت : معجم البلدان .

(٦) امام هذا الخبر فى هامش المخطوطة « مبلغ لداء هذا الكلب » .

(٧) من هنا حتى آخر الخبر يتشابه تشابهاً كبيراً — مع اختلاف طفيف — مع معجزة
الحماد الواردة فى أبى شامة : الروضتين ٨/٢

ألف دينار وإطلاق ألف أسير من المسلمين ، فكان الفقيه [ضياء الدين] عيسى^(١) مأسوراً عندهم من نوبة^(٢) الرملة فالترم أن يؤدى من قطيعته المذكورة القطيعة التى عرف بها فسكاكه ، وأما د هو ،^(٣) — ابن القومصية — فإنه افتكته أمه بخمسة وخمسين ألف دينار صورية^(٤) ، وأما د أود ، — مقدم الداوية — فإنه مات^(٥) فى سجنه فطلبت جيفته فأخذوها بإطلاق أسير ، وطال أسرُ الباقيين ، فمنهم من هلك فى الأسر ، ومنهم من خرج بقطيعة وأمان ؛ وكانت لعز الدين فرخشاه فى هذه النوبة اليد البيضاء والبلاء المذكور.

ذكر سبب غيبة (٦) والدى الملك المظفر — سقى (٧) الله عهوده الرضوان — عن هذه النوبة

وذلك أن سلطان الروم [السلاجقة] قلع أرسلان أرسل فى طلب حصن رعبان^(٨) يدعى أنه من بلاده وإنما أخذه منه نور الدين بغير أمر ،

(١) راجع ابن خلكان : وفیات الاعيان ، ٥٨٥/٣ .

(٢) راجع سيرة صلاح الدين ، ص ٤٢ — ٤٣ ، ونزهة الانظار ، ص ١٥٥ ، والروضتين (نشرة د . حلمى أحمد) ج ١ ق ، ص ٦٩٩ — ٧٠٤ ، وابن واصل : مفرج الكروب ، ٥٨/٢ — ٦٣ .

(٣) المقصود بذلك Hugh of Galilee راجع الحاشية رقم ٤ ص ١٧ .

(٤) وتسمى أيضا بالدنانير المشخصة وقد ذكر القلقشندى ، صبح الاعشى ٣/٣٧ أنها دنانير يؤتى بها من البلاد الفرنجية والروم وهى معلومة الوزن ، على أحد وجهيها صورة الملك الذى تضرب فى زمنه وعلى الوجه الآخر سورتا بطرس وبوليس الحواريين ، وقد يعبر عنها أحيانا بالافرنجية وأصلها افرنسى .

(٥) كان المتفق عليه أن يطلق «أودو» نظير إطلاق أحد المسلمين ممن أسره ، إلا أن «أودو» رأى نفسه اعظم من أن يتساوى به أى شخص من المسلمين مهما علت مكانته ، ومن ثم بقى رهين محبسه مما عابه عليه وليه الصورى انظر :

Guillaume de Tyre, Histoire d'Eracles. 29.

(٦) فى شأن هذه الغيبة وحملة المظفر تقي الدين عمر على رعبان يقول ابن كثير «وكان الملك المظفر تقي الدين عمر غالباً عن هذه الوقعة (أى وقعة مرج عيون) لما هو أعظم منها» .

(٧) يستدل من هذا الدعاء على أن المؤلف وضع كتابه بعد سنة ٥٨٧ هـ وهى السنة التى مات فيها أبوه .

(٨) رعبان قلعة بين حلب وسميساط غربى الفرات ، انظر باقوت : معجم البلدان ٧٩١/٢ مراصد الاطلاع ٦٢١/٢ ، وراجع أيضا دائرة المعارف الإسلامية مادة Klidji Arslan

وأن ولده الملك الصالح قد أنعم به عليه ، فأبى ذلك الملك الناصر صلاح الدين ، فجز قلع أرسلان عسكرياً ونزل على حصاره (٧ب) فندب السلطان الملك المظفر إلى لقائهم بجماعة^(١) يسيرة ، وكان جملتهم ثمان مائة فارس ، وكان عسكر قلع أرسلان نيفا وعشرين ألف فارس مجتمع على النهب والغارة ، فسار بمن معه من العدة اليسيرة المذكورة حتى أشرف على عسكر قلع أرسلان ليلاً ، وقد تلاحق به من أصحابه نحو من مائتين والباقون في إثرهم لم يتفق اجتماعهم جملة واحدة ، لأن طريقهم كانت وعرة لم يسيروا معظمها إلا رجالة ، فلما أشرف عليهم ضربت كوساته^(٢) وبوقاته ، فركض بمن معه وخالط القوم ، وذلك في سوق الربيض ، وكان لعسكر قلع أرسلان من فرسانهم ثلاثة آلاف في حصار الحصن ، فحين وقع الصالح تحادروا عليه وضايقوه ومن معه ، فأشار إلى غلامه بأن يعطيه قطاريتيه ، فناوله إياها فحمل عليهم وقال : « أنا الملك المظفر ، ثم طعن فارساً فأرداه ، وحل أصحابه في إثره فكسروا فرساناً ، فلما نظر القوم إلى ذلك انهزموا من بين يديه عن آخرهم ، ووقع الصالح بهم فجعل يتبع بعضهم بعضاً وتركوا خيامهم بما فيها من أثقالهم . ومنهم من أصابه بذلك ، وأسر من مقدميهم بذلك جماعة ، فلما أصبح خلع عليهم وأعطى كل واحد منهم فرساً يحمله ، وسير النجب من هناك إلى السلطان والكتب تخبره بما رزقه الله من النصر والمظفر بعسكر قلع أرسلان ، ووافق ذلك مامن الله تعالى به على السلطان من ظفـره

(١) قدرها ابن الأثير : الكامل ١٨٧/١١ ، وابن الوردي : تنمة المختصر ٨٩/٢ ، وأبو الفدا ، المختصر ٦٥/٣ بالف فارس ، على حين أن أبا شامة : الروضتين ٩/٢ ، وابن كثير : البداية والنهاية ٣٠٣/١٢ قدرها بشمانمائة مقاتل فقط . والمأثور عن تقي الدين عمر أنه كان يفتخر بذلك ويقول « هزمت بألف مقاتل عشرين ألفاً » .

(٢) عرف الفلقشندي : صبح الأعشى ٩/٤ الكوسات بأنها صنوجات من نحاس تشبه الترس الصغير يدق بأحدها على الآخر بإيقاع مخصوص ومعها طبول وشبابة يدق بها مرتين في القلعة كل ليلة ، وإذا كان السلطان في السفر تدور حول خيامه ، وذكر أيضاً : شرحه ١٣/٤ أن الواحد الذي يستعمل في ضرب هذه الكوسات يعرف بالكوسي ، انظر أيضاً Gaudefroy-Demombynes : La Syrie, Introd., p. I.IV, note 3.

بالإفرنج في مرج عيون ، ، وسارت بذلك البشائر إلى بلاد الإسلام ،
وسيرت كلمات الشعراء إليه من أقاصى البلاد وأدانها . فمن ذلك كلمة أمين
الدولة أبي الفتح محمد بن عبد الله التعاويذى البغدادى (١٨) وهو من
شعراء الديوان العزيز بمدينة السلام ، سيرها إليه في السنة المذكورة إلى
دمشق ، وهى :

إن كان دينك في الصباة دني
فقف المطى برملى بيرين
والثم ترى لوشارفت في هُضْبِهِ
أيدى الركاب لشمته بجفونى
وانشد فوادى في الظباء معرضا
فبغير غزلان الصريم جنونى
ونشيدتى بين الخيام وإنما
غالطت عنها بالظباء العين
لولا العدى لم أكن عن الحاظها
وقدودها بحوازن وغصون
لله ما اشتملت عليه قباهم
يوم النوى من لؤلؤ مكنون
من كل تائمه على أترابها
بالحسن ، غانية عن التحسين
خود ترى قمر السماء إذا بدت
ما بين سائلة لها وجين
غادين مالمعت بروق ثغورهم
إلا استهلّت بالدموع شؤونى
إن ينكروا نفس الصبا فلأنها
مرت بزفرة قلبى المحزون

وإذا الركائب في الجبال تَلَفَّتْ
فخينها لتلفَّتْ وحنيني
يَا سَلَمَ إِن ضَاعَتْ عَهْدِي عِنْدَكُمْ
فَأَنَا الَّذِي اسْتَوْدَعْتُ غَيْرَ أَمِينٍ
أَوْ عَدْتُ مَغْبُونًا فَمَا أَنَا فِي الْهَوَى
لَكُمْو بِأَوَّلِ عَاشِقٍ مَغْبُونٍ
رَبِّمَا فَقَدْ عَسَفَ الْفِرَاقُ بِمَطْلَقِ
الْعِبَرَاتِ فِي أَسْرِ الْغَرَامِ رَهِينِ
مَالِي وَوَصَلَ الْغَانِيَاتِ أَرْوَمِهِ
وَلَقَدْ بَخِلْنِي عَلَى الْمَاعُونِ
وَعَلَامَ أَشْكُرُ وَالِدَاءَ مَطَاةِ
بِلْحَظْمِنِ إِذَا الْجَمَالَ دِيُونِي
(٨ب) هِيَاهُ مَالِ الْبَيْضِ فِي وَدَّ أَمْرِي
أَرْبُ ، وَقَدْ أَرَبْنِي عَلَى الْخُسَيْنِ
وَمَنْ الْبَلِيَّةُ أَنْ تَكُونَ مَطَالِي
جَدْوِي بِخَبْلِ أَوْ وَفَاءِ خُؤُونِ
لَيْتَ الضَّنِينَ عَلَى الْمَحَبِّ بَوَصْلِهِ
لَقِنِ السَّاحَةَ مِنْ صِلَاحِ الدِّينِ
مَلِكٍ إِذَا عُلِقَتْ يَدُ بَرْمَامِهِ
عُلِقَتْ بِخَبْلِ فِي الْخِفَافِ مَتِينِ
قَادِ الْجِيَادِ مَعَاقِلًا ، وَإِنْ أَكْنَفِي
بِمَعَاقِلٍ مِنْ رَأْيِهِ وَحُصُونِ
وَأَعَدَّ الْأَعْدَاءَ كُلَّ مَهْنَدٍ
وَمُتَقَفٍ وَمُضَاعَفٍ مَوْصُونِ

سهرت جفون عداه خيفة ماجد
خلقت صوارمه بغير جفون
لو أن لليث الهزبر سطاء لم
يلجأ إلى غاب له وعرين
والبحر لو مزجت به أخلاقه
لغدت مياه البحر غير أجون
والأرض لو شيت بطيب ثناه لم
تثبت سوى الخيري والنسرين
والدهر لو أعداه حسن طباعه
ما شين من أبنائه بضنين
قسما لقد فضل ابن أيوب الحيا
بسماح كف بالنصار هتون
مخلوقة من سؤدد وندى . وقد
خلق الأنام سلالة من طين
يامن إذا نزل الوفود ببابه
نزلوا بحج من نداء معين
أضحت دمشق وقد حلت بجوها
مأوى الطريد وموئل المسكين
وغدت بعدلك وهي أكرم منزل
تلقى الرحال به وخير قطين
يثنى عليك المعدمون بها كما
تثنى الرياض على السحاب الجون
(١٩) لك عفة في قدرة ، وتواضع
في عزة ، وشراسة في لين

قسمت يمينك في الورى الأرزاق والآ
 جال بين منى وبين منون
 وأريتنا بجميل صنعك ماروى الرا
 وون عن أمم خلت وقرون
 وضمنت أن تحيى لنا أيامهم
 بالمكرمات ، فكنت خير ضمنين
 كاد الأعادى أن يصيبك كيدها
 لو لم تككك برأيها المأفون
 تخفى عداوتها وراء بشاشة
 فتشف عن نظر لها مشفون
 دفنت حبايل مكرها فرددتها
 تذوى^(١) بغيظ صدورها المدفون
 وعلمت ما أخفوا كأن قلوبهم
 أفضت إليك بسرّها الخزون
 كنوا وكم لك من كمين سعادة
 في الغيب يظهر من وراء كمين
 فهوت نجوم سعودهم ، وقضى لهم
 بالنحس طائرُ جدك الميمون^(٢)
 فتملّ دولتك التى حكمت لها
 الأقدارُ بالتأييد والتمكين

* * *

(١) « تدرى » في الروضتين ١٠/٢ .

(٢) ورد هذا البيت في الروضتين ١١٠/٢ على الصورة التالية :

فهوت نجوم سعودهم وقضى لهم
 بالنحس طائرهم بمسرح عيون
 وعلق أبو شامة على هذا بقوله « قلت : هكذا أشده وهو حسن ، وقد كشفته في نسخة
 « نديوان ابن التعاوبدى : طائر جدك الميمون »

ومنها بعد أبيات يذكر فيها حاله ويصف من كثرته :

واقصد حمى ملك عزيزٍ جارُهُ
سامى الذؤابة شامخ العرين
واهد الثناء إلى أغر فسيح أقد
طار المحامد بالثناء قين

* * *

ذكر النزول على بيت (١) الأحزان

وذلك في شهر ربيع الآخر من السنة :

ولما أحكم الفرنج — خذلهم الله — بناء بيت الأحزان فسكر^(١) السلطان في نفسه وندم^(٢) (٩ب) على ما فرط في تركهم في مبدأ الأمر ، فراسل الفرنج على أن يهدموا الحصن فإن ضرره يكون على الإسلام فقالوا^(٣) : « لا سبيل إلى هدمه » ، فراجعهم على أن يشرعوا في هدمه « وإلا سرتُ إليكم بعساكر الإسلام » . فلما تحققوا عزمه وعلوموا أن لا بدَّ له من ذلك قالوا : « إن كان لابد من ذلك فأعطنا ما غرمننا عليه من الأموال ، فإننا قد غرمننا عليه مالا كبيرا » ، فبذل لهم أولا ستين ألفا فلم يقبلوا ، فبلغ معهم إلى أن بذل لهم

(١) عرف مراصد الاطلاع ٢٣٦/١ بيت الاحزان بأنه بلد بين دمشق والساحل ، وقال
ضموا انه كان مسكن يعقوب — عليه السلام — أيام حزنه على يوسف .

(٢) « افكر » في الاصل .

(٣) ذكر البعض أنه لما بنى الفرنج مخاضة بيت الاحزان هذه قيل لصالح الدين انه
منى احكم هذا الحصن تحكم الوهن من بلاد الاسلام ، فقال : « اذا اتموه نزلنا عليه وهدمناه
الى الاساس » راجع ابن واصل : مفرج الكروب ٧٢/٢ .

(٤) في الاصل « فقالوا وان » .

مائة ألف دينار ، ، فلما سمعوا ذلك داخلهم ^(١) الطمع .

وكان سبب ذلك الداوية ، فإنهم كانوا يمدّون مَنْ بالحصن بالأموال والنفقات وجميع ما يحتاجون إليه ، فلما رأى السلطان [ذلك] جمع الأمراء من أصحابه وأولى الرأى والمشورة وعرفهم ما ذكره الفرنج من امتناعهم وطمعهم وهل يزيدهم مالا ، فقالوا : « الصواب أن تعطيم رضاهم من المال ويهدم الحصن » ، فقال لهم . « ما أفعل شيئاً ولا أبرم أمراً إلا بمشورة ابن أخى الملك المظفر عمر » ، وكان [المظفر] فى حماة قد شرع فى إصلاح قلعتها وتحصينها ؛ فأرسل [السلطان] إليه جماعةً من الأمراء إلى حماة ليحضروا عنده ويستنبروا به يأخذوا رأيه ويعرفوه ما يكون عليه العمل ، فلما وصل المنفذون إلى حماة حضروا بين يديه وسلموا إليه كتاب السلطان وشاوروه فيما أُرسلوا به فقال : « ما أرى هذا رأياً صالحاً » . ثم كتب إلى السلطان كتاباً يذكر فيه : « إن هذا الرأى الذى قد أزمعت عليه ليس بشئ » ، وإن الله تعالى يسألك عن إعطائهم هذا المال ، ، وأنه قادر على المسير (١٠) إليهم ، « والرأى أن نصرف هذا المال إلى الأجناد ونزغهم فى الجهاد ، وتسير بعساكرك وتنزل عليه والله تعالى فى معونتك ونصرتك » ، ثم خلع على الجماعة الذين جاءوا إليه وأمرهم بالسير إلى السلطان ، فلما وصلوا إليه سلموا إليه الكتاب وعرفوه ما قال لهم شفاهاً فقال : « هذا هو الرأى السديد » ، ثم أحضر الأموال وأرسلها إلى سائر التركمان والأجناد فى البلاد ،

(١) يبدو من المخطط العام للصليبيين فى الشام فى ذلك الوقت أنهم كانوا قد انفقوا فيما بينهم على فتح عدة جيوب حربية فى النجبة الاسلامية ، فترجعت أكثر كتابهم الى دمشق فى ذى القعدة سنة ٥٧٤ هـ فكانت النصرة لجند صلاح الدين بقيادة ابن أخيه فرخشاه ، ثم انه فى تلك السنة أيضاً غار صاحب انطاكية على شيزر وصاحب طرابلس على كثير من التركمان ، لذلك سار صلاح الدين ابن أخيه تقي الدين عمر الى حماة وابن عمه ناصر الدين محمد بن شيركوه الى حمص لحفظ البلاد ، راجع ابن الأثير :

وأنفذ التخوت والخلع والتشريفات والحبيل إليهم حتى جاءوا إلى سائر التركمان الذين هم غربي الفرات وشرقيها ، وسلموا الأموال إليهم والخلع وما عدا ذلك ورغبوهم في الجهاد ، فسارعوا إلى أمر السلطان وجاء منهم خلق كثير ، وكتب إلى سائر الأطراف والأمكنة ، فاجتمع عنده من الأمراء والأجناد والتركمان ألوف كثيرة ، وسار والدي الملك المظفر من حماة بجماسته متوجها إلى دمشق فكان وصوله إليها في أول يوم من شهر ربيع الآخر ، فسَّـرَّ السلطان بقدمه وخرج لتلقيه ، وأعدَّ التركمان ما احتاجوا إليه من الدقيق وغيره وجميع ما احتاجوا إليه ، ثم أمر الناس بالرحيل فخرج في جيش كالبحر الزاخر ، وكان خروجه من دمشق يوم الخميس^(١) خامس شهر ربيع الآخر ، ونزَّاه على الحصن يوم الثلاثاء حادي عشره قريبا منه^(٢) ، وكان جميع من حوله قد احتفى فيه وغلقوا بابه .

ثم^(٣) إن السلطان ركب بكرةً إلى ضياع صفد ، وكانت قلعة صفد يومئذ للداوية فأمر بقطع كرومها وحمل ما هناك من الأخشاب لعمل المنجنيقات ، وعاد إلى الختيم بعد الظهر (١٠ ب) وخرج بعد العصر وجمع الأمراء وعارض برأيهم رأيه ، فقال له عز الدين جاوئى الأسدى : « تأذن لنا في الزحف قبل الاشتغال بنصب المجانيق حتى نذوق قتالهم ونستعرض أحوالهم ، فربما تلوح لنا منهم فرصة » ، فقال السلطان : « استخيروا الله عز وجل وافعلوا ما بدا لكم » ، فشى الناس إلى الزحف ودنوا من الباسورة^(٤) ،

(١) الوارد في التوقيعات الإنشائية . ص ٢٨٨ أن أول ربيع الآخر عام ٧٥٥ هـ (وهى السنة التى تتناولها هذه الصفحات) كان يوم الأربعاء .

(٢) فى الأصل « من منه » .

(٣) على الرغم من أن خبر هذه الحملة وارد بصورة مشابهة لهذه فى أبى شامة : الروستين ١١/٢ ، إلا أن المضمار يمتاز فى هذه الناحية بإبراده جزءا من الحديث الذى دار فى المجلس ، مع أن ما ورد فى الروستين كان على لسان العماد .

Dussaud : Topographie Historique de la Syrie, p. 248, (٤) et note 6.

فتخاذل من كان بها من الفرنج وانهمزوا ودخلوا الحصن وأغلقوا الأبواب ، وأحاط الناس بالحائط ، وملك^(١) والدى الملك المظفر الباسورة برجاله وباتوا طوال الليل يحرسون ، والفرنج على شرافات الحصن يرمون بسهامهم ويتبعونها بشبه النيران ، وأصحابنا على الحفاظ ، تخرج جماعة والسلطان يدمم وينجدهم ، وكان بعض الممالك^(٢) قد سمع من وراء الباب صوت الحجارة ، فلم أن الفرنج يبيتون خلف الباب وأنهم قد أوقدوا خلف كل باب ناراً ليحموا^(٣) بها أنفسهم ، فلم حينئذ ضعفهم ، فجاء [المملوك] وأعلم والدى ، فتيقن [والدى] أخذ الموضع وأعلم السلطان بذلك ، فبات الناس تلك الليلة في أشدّ جهاد .

ثم إن السلطان فرق البناء^(٤) على الأمراء ، فأخذ عمى عزائدين فرخشاه الجانب القبلي وجمع عليه النقاين والحجارين ، وجاء الجاندارية^(٥) وراء

(١) يشير المؤلف لأول مرة في هذا الخبر إلى وجود أبيه الملك المظفر تقي الدين عمر في الحصار وقد تشير هذه الإشارة إلى أن اكباره لأبيه هو الذي جعته بذكره هنا ، وقد يؤكد هذا الملك خذو ابن الأثير : التذمّل ١٨٩/١١ من الإشارة إليه ، على أن ابن واصل : مفرج الكروب ٨١/٢ قد نص على وجوده .

(٢) في الأصل « الممالك » .

(٣) في الأصل « ليحمون » .

(٤) المقصود هنا بالبناء هذا الحصن .

(٥) عرف Gaudefroy-Demonbynes, op. cit. Intr. P.C.

« الجنسدار » ، و فرق بينه وبين « الجنسدار » بأن الأخير هو خادم حجرة السلطان ويساعده في عمله البشمقدار ، ويشير ابن خليل الطاهري في زبدة كشف الممالك (ص ١١٤) إلى أن وظيفته تدخل في عداد أمراء الطليخانة ، هذا وقد أورد المقرئ عيادة نقلها عن المقصد يستدل منها على أن وظيفة الجنسدار هي أمير طليخانة ، انظر في ذلك Quatremere, Hist. de Mam. t. I., p. 114. note 15

الجفاتي^(١)، وأخذ السلطان النقب في الجانب الشمالى وأنهض إليه الحجارين . وأخذ ناصر الدين محمد بن شيركوه بقربه نقا ، ورتب السلطان الرماة على الخندق يمنعون الفرنج من إخراج رءوسهم من وراء ستائر السور ، فكم من جريح وطريح حتى استقر النقا بون في مواضعهم ، فإزالت المعاول تعمل والصخور تتخلخل حتى استقامت (١١١) النقب ، فما انقضى يوم الأحد حتى تم النقب السلطاني ، وعُلِّق وحشى الحطب ليلة الاثنين وأحرق فظُنَّ أنه يتضعضع ؛ وكان النقب في طول ثلاثين ذراعاً وفي عرض ثلاثة أذرع ، وكان عرض السور تسعة أذرع . فأصبح الناس يوم الاثنين والسور على حاله لم يتضعضع ، فأشفقوا لذلك وضعف يقينهم إذ لا سبيل لهم إلا تعميق النقب وتوسيعه للنيران الملتته فيه ، فأخرج السلطان صرّة فيها ثلاثمائة دينار مصرية وتركها على يد عز الدين جاولى وقال : « من أتانا بقربة من الماء أعطى ديناراً ، وكان الماء بقربه ؛ فرأيتُ الناس يتسابقون بالقرب والأوعية حتى أطفؤوها وبرد ما كان في النقب منها ، فعاد النقا بون وعمقوه وعلقوه وحشوه واستظفروا فيه يومى الثلاثاء والأربعاء ، ثم أحرقوه .

ووصل في ذلك اليوم أن الفرنج قد اجتمعوا بطبرية^(٢) بجمع كفيف

(١) إذا صحت قراءة هذا اللفظ على هذه الصورة فلعل المؤلف يقصد بها « الجفنة »

التي عرفها القلقشندي ، صبح الاعشى ٦/٤ ذكر رسوم الملك وآلاته بأنها « اثنان من اوشاقية اسطبل السلطان قريبان في السن ، عليهما قباءان أصفران من حرير بطراز من زركش ، وعلى راسيهما قبعتان من زركش وتحتهما فرسان اشهبان برقبتيين وعدة ، يركبان أمامه في أوقات مخصوصة كالركوب للعب الكرة » .

(٢) عرف مراصد الاطلاع ٢/٨٧٨ - ٨٧٩ طبرية بأنها بليدة مطلة على البحيرة المعروفة

بها وهي من أعمال الاردن في طرف القدس بينها في المسافة وبين دمشق ما بينها وبين بيت المقدس ، انظر Dussaud : op. cit. p. 3, note 5. ويستفاد مما ذكره

المؤرخ الصليبي Guillaume de Tyre, Nos. 27-30 أنه قد ترمى الى سمع =

وعالم كبير ، فاج الناس وأسرعوا من الضياع ، فلما أصبحنا يوم الخميس الرابع والعشرين من الشهر المذكور وقد تعالى النهار وإذا بالجدار قد انقض فتباشر الناس وضجّوا بالتكبير والتهليل ، وتسابق الناس إلى التلة يركب بعضهم بعضا ، وكان الفرّج قد جمعوا من وراء ذلك الجدار الواقع خطبا ، فلما سقط رموا^(١) به نارا ليحموا بها أنفسهم فلما أن سقط الجدار دخلت الريح من تلك التلة عادت النار عليهم وأحرقت البيوت الدانية منها ، فاجتمعوا إلى الجانب البعيد منها وصاحوا : « الأمان » ، وتسلق الناس الجدار وأطلقوا أيديهم بمن في الحصن فقتلوا وأسروا وقبّدوا ، وجلس السلطان وأحضر (١١ب) عنده الأسارى ، فمن كان منهم مرتدّا أوراميا أمر بضرب عنقه ، وكان في الحصن من المسلمين في الأمر نحو من مائة أسير قد جمعهم للعمارة وقطع الحجارة ، واستبشر السلطان بما منّ الله تعالى عليه من النصر . وفرح الناس .

واتفق لسعاده أن رسول القومص كان عنده في تلك الساعة وهو يعاين ما يجري على أهل ملته من البلاء والهلاك ، وكان الحرشديداً فانتنت أشلاء القتلى ، فأمر السلطان بتسيير الباقين من الأسرى إلى دمشق ومبشراً للناس بما أتاه الله تعالى للمسلمين من الفتح والظفر ، وأقام في تخيمه والأموات قد جافت وقال : « لا أبرح من مكاني حتى أهدم الموضع » فقسّمه أذرعاً على الأمراء ، ولم يزل مكانه حتى كمل خرابه ، وكان قد حفر الفرّج في أعلى التل جُبّاً واسعاً وبنوه بالحجارة وأحكموه حتى نبع معينه ، فأمر [السلطان] بهدمه وطمّنه ، ورجع إلى دمشق مؤيداً منصوراً .

== صلاح الدين أن جماعة من الفرسان الفرنسيين بقيادة هنري الثاني دوق شامبانيا قد وصلوا نجدة لصليبي الشام مما حمل صلاح الدين على المبادرة للاستيلاء على الحصن انظر أيضا Runciman, op. cit. II, p. 421. Grousset : Histoire des Croisades.

(١) في الأصل « أرموا » .

وكان المقام على الحصن - في أيام فتحه وبعدها - أربعة عشر يوماً،
وحين دخل الناس إلى دمشق مرض أكثر الناس ممّا أصابهم من تن ذلك
الموضع ، ومات جماعة من الأمراء .

ولما استقر السلطان بدمشق أته التهئة من الناس من كل مكان بفتح
الحصن المذكور وما رزقه الله تعالى من النصر والظفر بالعدو ، وامتدحه
جماعة من الشعراء ، فكان من جملتهم أبو الحسن علي بن محمد الساعاتي^(١)
الخراساني من أهل دمشق ، امتدحه بهذه القصيدة :

بجـدك^(٢) أعطاف القناتعطف

وطرف الأعادي دون مجدك يطرف

شباب هدى في ظلمة الشك^(٣) ثاقب

وسيف^٤ ، إذا ماهزك الله مرهف

(١٢) وقفت على حصن المخاض وإنه

لموقف حق لا^(٥) يوازيه موقف

فلميندوجه الأرض بل حال دونه

رجال كأساد الشرى وهى تزحف^(٦)

(١) كانت وفاته في رمضان سنة ٦٠٤ هـ القاهرة ، راجع ترجمته في ابن خلكان : وفيات
الاعيان ٧٣/٣ - ٧٤ : شذرات الذهب ابن العماد الحنبلي

(٢) ورد هذا الشطر في ابن كثير : البداية والنهاية ٣٠٣/١٢ « بجـدك أعطاف القنات
قد تعطفت » ويلاحظ أن القصيدة اختلفت باختلاف النسخ التي ذكرتها ، انظر أباشامة :
الروستين ١١/٢ ، وابن واصل : مفرج الكروب ٨١/٢ - انظر الحواشي التالية

(٣) « الليل » في ابن كثير : البداية والنهاية ٣٠٣/١٢ ، و « الشرك » في مفرج الكروب
٨٤/٢ ، والشطر الثاني « وسيف هدى في طاعة الله مرهف » وارد في الروستين ١١/٢ ،
وما ورد أعلاه بالمتن كان قد ورد في النسخة الاصلية من مفرج الكروب ولكن الدكتور
جمال الدين الشيال أثار عليه رواية الروستين .

(٤) في مفرج الكروب ٨٤/٢ « ما » .

(٥) في البداية والنهاية ٣٠٣/١٢ « ترجف » .

وجرداء^(١) سلهوب وردع مضاعف
وأبيض هندي ولدن مثقف
ومارجعت^(٢) أعلامك الصفر^(٣) ساعة
إلى أن غدت أكبادها السود ترجف
كبا^(٤) من أعاليه صليب زبيعة
وشاد به دين حنيف ومصحف
ومنها :

أيسكن أوطان النبيين عصة
تمين لدى أيمانها وهي تحلف ؟
نصحتكموا ، والنصح في الدين واجب .
ذروا بيت يعقوب فقد جاء يوسف .

• • •

ذكر غارة عز الدين فرخشاه على صفد

وذلك في ذى القعدة من السنة المذكورة :

كان عمى عز الدين فرخشاه ذا رأى شديد وفعال حميدة ، ولما أراد الله تعالى أن يذل أهل صفد بغارته تلك جمع من رجال بانياس وما حولها من الأعمال من جرت عادته بالحرب . فصبح صفد صباح الأربعاء ثامن عشر الشهر فسبي وسلب وغنم غنيمة كبيرة . وتوغّل عليهم في الربض فأحرق منه مواضع شتى ، وكان قد أعجلهم عن الالتجاء إلى القلعة ، فأسر منهم جماعة وأثنى فيهم الجراح وعاد منصوراً إلى الخيم السلطاني .

• • •

(١) في البداية والنهاية . شرحه « وجود سلهوب ولدن مهفف » .

(٢) « رفعت » في مفرج الكروب ٨٤/٢ .

(٣) في ابن كثير : البداية والنهاية ٣٠٣/١٢ « البيض ساعة الا غدت » .

(٤) « كنائس أفياد صليب » في ابن كثير . شرحه .

فصل من كتاب عن السلطان إلى الرسول ببغداد في المعنى : ورأينا أن البدار إلى الحلول بدارهم ، وإحلال الخزي بهم في تعجّل دمارهم ، فرصة لفريضة الجهاد منتهزة ، وعدة من الله تعالى في قهر (١٢ب) عداته مستجزة ، وغنيمة للإسلام محرزة ، ونصرة في أقرب أمد بأنجح أمل بعون الله موجزة ، لاسيما والصوارم قد قلقت في أغمادها ، واللهازم قد خلقت عرى اجتهداها في جهادها ، والعزائم قد رمضت مضارب مظانها ، والسوابق قد ضمرت في مضارها ، شوقا إلى إخراجها ، والبيض والسمر قد اهتزت أعطافها إلى الانتشاء من طلاء الطل ، والارتعاف في اكلاء السكلا ، والاكتساء من النجيع القاني محمّر الحلل والحلى ، والسنة الأسنة قد خطبت عقائل المعازل ، وخطبت على أعواد العوامل الذوابل ، وطيور السهام المبرية المريشة إلى أوكارها من المقل فازعة نازية ، والأقدار بما تجري به من نصرة الإسلام زاهية ، والمنايا بأمانى المغرورين من أهل الشرك هازية ، وهممنا العالية بدّين الدين متقاضية ، وإلى حاكم القضاء في اقتضائه مقاضية ، وهذه سنة قد هبت فيها النصرة من سنينها ، ومحت سيئة الليالي بحسناتها ، وبلغت نعم الله تعالى فيها منتهى منتهى ، وأظهرت فرصة الانتهاز لها آية مكنيتها ، ومما يبرهن على هذا القول ، ويبر الأنام بشكر هذا الطول ، مقدّمة في النصر يدل على أن نتائج الفتوح الأبرار ، وباكورة في الظفر سمح بها القدر تبشّر بأن جرت بمساعتنا الأقدار ، وذلك أن والدنا^(١) عز الدين فرخشاه — أحياء الله تعالى وأبقاد — نهض من العسكر برأس الماء في الحاضرين بعسكرنا عنده ، واستصحب رجّاله بانياس معه (١١٣) وأغار على صفد بكرة الأربعاء ثامن عشر ذى القعدة عند سلخ الصباح ، فساه^(٢) صباح المندرين ، وكانوا في مساكنهم غارين ، وبحصانتها مغترين ، فأذن إقدامه بشت شملها ، ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها ، وسقى عطاش البيض وظماء الظبي من وردٍ وريدم وروّاه ،

(١) في الأصل « ولدنا » والارجح هو الصورة التي أثبتناها عليها في المتن وذلك لكبار من المؤلف لعمه وتعظيمها لمكانته وانزاله إياه منزلة أبيه .

(٢) إشارة الى قوله تعالى « فإذا نزل بساحتهم فساه صباح المندرين » ، سورة

وأحرق أرباضها فدمدم^(١) عليهم ربهم بذنبهم فسواها ، وأعجلهم عن
الالتجاء إلى القلعة ، والاحتماء بالتلعة ، فسفح ذلك السفح دماهم ، وسبى
ذراريهم ونساءهم ، وساق أغنامهم وأبقارهم ، وخرب عليهم بل أحرق
ديارهم ، وأشعل تلك الأماكن نارا ، وأدركتها دعوة نوح : رَبِّ^(٢)
لَا تَذَرْنِي عَلَى الْآرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ، فأعاد عليهم ليلا ثانيا
بمُتَّارِينَ : من نفع ودخان ، وأقام فيها المأتم بنكايَسْتِينَ : من أسر وإمخان ،
وعاد إلى الخيم مشكور الخيم ، موفور النعم ، ظاهر الراية ، باهر الآية ،
غانم الجند ، غالب الجند ، كريم الظفر ، حميد الأثر ، وقد كفَّ كفَّ
الكفر . وهذ ركن النكر ، وسفرت وجوه الإسلام بهذه البشرية بشرًا ،
وطابت قلوب المؤمنين وطابت أرجاء الرجاء بأرج نجاحهم بشرًا ،
فهذه صفة صفد عند النهضة إليها ، والإشراف عليها ، فكيف والسيوف
قد طاب ربها من طبرية ، وعاينت هي وأخواتها منا البلية ، والقدس ينتظر
إقدامنا ، ويستشرف اعتزامنا ، ونأمل من الله أن ينجز ميعاد نصره ، ويفتح
لنا البلد الموعود بحصره ، فحينئذ نهيي سلك الساحل وتبدد عقوده ،
ونستخلص من أيدي المشركين بعون الله تعالى حقوقه وحدوده ،

وفيا (١٣ ب) توجّه أبو يعقوب يوسف^(٣) بن عبد المؤمن بنفسه
إلى بلاد إفريقية ، ففتح قفصة^(٤) وحمل واليا^(٥) على بن [المعز بن]
المعز ومسعود بن زمام [أمير العرب] ورجع إلى المهديّة .

(١) إشارة الى قوله تعالى « فكذبوه فغفروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها »

سورة الشمس ٩١ : ١٣٥ .

(٢) قرآن كريم ، سورة نوح ٧١ : ٢٦ .

(٣) انظر وفيات الأعيان لابن خلكان ، ١٣٠/٦ - ١٣١ وقد جعل وفاته في سنة ٥٨٠ هـ
على حين أدرجه ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب ٢٦٤/٤ ممن ماتوا سنة ٥٧٨ هـ ، أما
أبو الفداء ، المختصر في أخبار البشر ، ٦٧/٣ فقد جعل ٥٨٦ هـ هي سنة الوفاة .

(٤) الضبط من البغدادي : مراسد الاطلاع ١١١٣/٣ وقد عرفها بأنها بلدة « صغيرة
في طرف إفريقية من ناحية المغرب من عمل الزاب الكبير » .

(٥) اكتفى ابن خلكان ، شرحه ، بالإشارة الى فتحه مدينة قفصة دون أن يذكر
واليا ، لكن راجع هذه القصة بتفصيل أكبر في ابن الأثير : الكامل ١٩٠/١١ - ١٩١ ،
والإضافة منه .

واقعة شرف الدين قراقوش المظفرى

وفى هذه السنة^(١) كان خروج شرف الدين قراقوش إلى ناحية طرابلس وحده نفوسة ، ووصل إلى السويقة في اليوم الرابع من صفر من السنة المذكورة وتلقاه أمراء ذباب^(٢) حميد بن جارية وكان عظيمهم ورئيسهم المطاع ، وشكر بن ثاقب ، وبدر بن هدية ، وفرج بن منبه ، وعلى بن طلاح ، وثائر بن روق ، وجبوس بن ججاز ، وجميع بن موسى ، ومناس بن عمرو ، وعريف بن سنان وجماعة من مقدميهم يطول بذكرهم الكتاب ، وأقاموا وإياه بالسويقة عشرة أيام يستحضرون القبائل من ذباب ويستحلفونهم على الخدمة والنصح ، وسار وإياهم [حتى]^(٣) نزل برّ ليطن ، وهى قصور حسنة على مرحلة من السويقة فى وطأة كثيرة الزيتون وعيون الماء ، ورحل منها فنزل الطابية وأقام بها يومين ، ورحل عنها فنزل لـبـدة^(٤) ، وأقام بها ثلاثة أيام ورحل عنها فنزل مسلاة — وهى جبل إلى ناحية نفوسة — فأقام بها يوماً واحداً ، ونزل منها إلى الوطا الذى لبلاط طرابلس ، وانهاات عليه دباب من كل مكان حتى صار فى خمسة ألف منهم ، ومعه من أصحابه أربعمائة فارس أتراك وأكراد وأكادش ،

(١) جعل ابن الاثير بداية خروج قراقوش فى سنة ٥٦٨ هـ تحت عنوان « ذكر وصول الترك الى افريقية وملكهم طرابلس وغيرها » ، على أنه يلاحظ أن ابن الاثير اغفل هذا الخبر الذى ذكره صاحب المضمار .

(٢) امامها فى هامش المخطوطة العبارة التالية « بفتح الدال المهملة وتشديد الباء المنوحدة » .

(٣) غير واودة فى المخطوطة وانما اضيفت لىستقيم المعنى .

(٤) الضبط من البغدادى : مراصدا الاطلاع ١١٩٦/٣ حيث عرفها بأنها مدينة بين برقة وافريقية ، وقيل بين طرابلس وجبل نفوسة : أو حصن من بنيان بالاجر والحجر ، راجع ايضا ياقوت : معجم البلدان .

وكان ناصر الدين قد جمع زغب وانحاز إلى جبل نفوسة^(١) إلى ناحية ماعرس ، وترك شرق جبل نفوسة خوفاً من شرف الدين ، ولم يزل شرف (١٤١) الدين مقبلاً بتلك الدواحي أربعة عشر يوماً ، وتقدم إلى وادي يقال له محسن فنزل فيه وقلعة أم العز مطلة عليه ، فأقام به يومين ثم ارتحل بعجلة حميد بن جارية ولزّه كثيراً في المصاف .

وبعد أن جرى بينه وبين حميد كلام كثير من جلته أن قال له شرف الدين : « يا أمير ، إنما قصدى أن أستفسد جماعة من الأتراك الذين عند إبراهيم ويقل أصحابه ونقوى عليه » ، فقال له : « يا شرف الدين ، أنا سلطان ، إن أنت أقمت ولم تتقدم علمت أنك وصاحبك متعاملان علينا وتريد أن تصالحه وتصالح زغب ، وتكونون كلكم علينا يداً واحدة » . فقال له شرف الدين : « أرحل لأجل هذا الكلام ، غير أنك سترى أصحابك وقد تغفلوا عنك وعادوا عليك وعلينا إن جرى لنا أيسر سبب » .

وكان شرف الدين خائفاً من أصحاب المبارز لئلا يخامروا ، فأراد أن يتوقف حتى يستفسد من أصحاب إبراهيم جماعة تكون خيراً له منهم وما يبقى عليه باس ، والذي خافه وقع فيه لأجل استعجال حميد له ، فسار بدباب ليلته ، ونزل إبراهيم وادياً يقال له أرقطين وأصبح شرف الدين بجمعه مقابلاً له ، فركب المسكران ووقع المصاف ، وحملت دباب على زغب فتأخرت قليلاً ، ووقف إبراهيم — وكان في القلب — وقوفاً جيداً ، وكان عالماً بإقدام شرف الدين ، وأنه إذا حمل لا يرد رأس فرسه ، فألبس تشاهيره^(٢) لغلّام له وأركبه فرساً كان له أشهب وتركه واقفاً في موضعه ،

(١) انظر عنه ياقوت : معجم البلدان ٨٠٠/٤ ، مرصد الاطلاع ١٣٨٢/٣ .

(٢) التشاهير اشربة قد تصغر أو تكبر يزين بها صدر الحصان ، راجع Dozy : Supp. Dict. Ar.

وحد عن وسط الطلب^(١) الذى له .

قال شرف الدين عندما وقف طلب إبراهيم وسأل عن حليته وإيش ملبوسه وعن (١٤ ب) فرسه الذى هو راكبه فعرفوه بذلك فقال لمن يثق به : « لا بدلى من إبراهيم » ، فحمل وتبعه من أصحابه أربعون فارساً إلى أن أخرج طلب إبراهيم وزعزعه عن مكانه الذى كان فيه ، ولحق صاحب الحصان الأشهب الذى عليه تشاهير إبراهيم ، فطعنه فأرداه عن فرسه وهو يظن أنه إبراهيم ، فلما وقع قال له : « زنهار يا خوند » ، فقال له : « ما أنت إبراهيم ؟ » ، فقال : « لا » ، فبصق عليه وقال : « شُهْ عليك » ، وانحرف .

وكان أصحاب المبارز سبعة نفر قد طلبوا التنفيذ ، ومنعهم حضور شرف الدين معهم فى الطلب ، فلما حمل وخلا لهم الموضع قفزوا لجمع ومن معهم مرة واحدة وكانوا يزيدون على مائة فارس وصاحوا : « ناصر الدين يا منصور » ، وصاروا قريباً من طلبه ، فردوا رؤوس خيولهم إلى ناحية القتال ، فراجع أصحاب إبراهيم وهم دباب وقد قفزوا ، فظنوا أن الجميع يفعلون^(٢) كما فعل أولئك ، فانتشرت دباب وهم فى خمسة ألف فارس وطلبها زعب ، فقلعت منهم جماعة ووصلوا إلى أثقال شرف الدين فانتهبوها وانتهت معهم أيضاً دباب ما قدرت عليه .

ولما رأت الأتراك ما فعلته دباب خافوا القتل : فقوم قفزوا ، وقوم أخذوا ، وصارت الكسرة على شرف الدين وعاد فلم يجد ثقلاً ولا شيئاً ،

(١) قصد بهذا اللفظ في بداية اطلاقه الأمير الذى يتولى قيادة مائتى فارس فى الحرب ، ثم تطور مدلوله فأصبح يطلق على الفرق من الجيش ، انظر Dozy : op. cit.

(٢) فى الأصل « يفعلوا كما فعلوا أولئك » .

وكان له من الأثقال شيء عظيم ، ولقد حدثني من أتق به أن شرف الدين حلف له بالله تعالى أن الذي كان تحت ثقله نفسه ألفا وثلاثمائة جمل ، وأما الأتراك فكل واحد أربعون جملا ، وثلاثون جملا ، وأقل وأكثر .

وأما شرف الدين فإنه رجع إلى ناحية محسن ومعه (١٥١) مائة وأربعون فارسا من أصحابه فحسب ، كل منهم عليه درعه ولامة حربيه وفرسه ، ولم يبق لواحد منهم شيء يلبسه ولا يأكله ، وبقي حميد معه ما زال ، فقال له : « يا أبا عسكر ، كيف رأيت حديثي وما فعله أصحابك وقبيلتك ؟ غدروا بنا ، وأخذوا مالنا ودوابنا ، وقد حضرت لنصرتهم ، ، ولم يقدروا أن يقولوا أكثر من هذا ، فقال له حميد : « لقد غدر الملاعين ، والله تعالى ينتقم منهم ولا بد من دائرة تدور عليهم . » وكان حميد شجاعا بطلا فارسا متكلمًا بمؤلا ، وبات بمحسن ، فأحضر له حميد ومن كان فيه ^(١) من العرب من دباب ما أكلوا ، ورد عليه إنسان خيمة كانت لبعض أصحابه أخذها في جملة ما أخذه فضربوها له ، وأصبح راحلا طالبا طرابلس المدينة نفسها ، وقد ثاب إليه في الليل من أصحابه قريب من أربعين فارسا ، وصار أصحابه يتواصلون إليه ، منهم من أطلقه إبراهيم ، ومنهم من كان منجأ فوصل إليه ، ونزل على تاجرة ^(٢) — بلد قريب من مدينة طرابلس — فتجها وأخذها ، فنهب منها أموالا عظيمة .

فلما رأت زعب أن أصحاب إبراهيم لا يبقى منهم أحد أشاروا عليه بأن ينفذ إلى شرف الدين ويصالحه ويعطيه شرقي نفوسة ويأخذ غريبه ، فعلم

(١) أي في جبل محسن .

(٢) في الأصل « ماجورة » ، ويوجد أقرب لهذا الاسم كلمتان أحدهما الواردة أعلاه في المتن والتي عرفها مراد الاطلاع ٢٤٨/١ بأنها بلدة صغيرة بالقرب من سواحل تلمسان ، أما الكلمة الأخرى فهي تاجونس وهي اسم قعر على البحر بين طرابلس وبرقة . ويوجد بلدة اسمها « تاجوزة » ولكننا لم نعثر عليها في معاجم البلدان العربية .

أن في ذلك المصلحة ، فنفّذ إليه وراسله في المصالحة ، ولم تزل المراسلة بينهما إلى أن استقر أن يأخذ شرف الدين مَقْرَةَ^(١) وعربان وقلعة أم العز ويفرن وسماح ، ويكون من سماح إلى غرب نفوسة لإبراهيم ، ومهما فتح كان بينهما ، فاختلفا على ذلك ، وأطلع شرف الدين نساءه إلى قلعة (١٥ب) أم العز ، وبقيت قلعة تيركب لإبراهيم ، وصار شرف الدين في الوطا يأخذ البلاد : أخذ دوائر وزواغة^(٢) ولمايه وسيرة ، في كل واحدة منهن بلاد كبيرة ، وأقام باقي سنته في بلاد طرابلس ، وأمنت دباب من غارة إبراهيم فصارت في كل وقت قسرق أصحاب شرف الدين ، ومن لقوه من الأتراك منفرداً قتلوه ، وعلم شرف الدين غدرهم ونحسهم .

وكانت زغب قد غربّت بعد أن قالت لإبراهيم : « من رأى أن تغرب معنا ، فإن شرف الدين في قوّة وهو قليل الغدر ما يأخذ لك شيئاً من بلادك ، وتملك في الغرب مواضع وتأخذ أموالاً » ، إلى أن يتيسّر شرف الدين نحس دباب وغدرهم فيعود إلى مصالحتك والاتفاق أنت وهو ونحن ، ونخرج دباب من البلاد فأبى عليهم ؛ فمضوا بعد أن ودّعوه وداع من لا يعود يلتقي .

فلما أحسّ شرف الدين — كما ذكروا — بغدر دباب ونحسهم وأنهم قد أمنوا من زغب وإبراهيم عزم على التغريب إلى دمّر وقطماطة وزريقا وقابس وما إلى تلك البلاد وتوجه إلى دمّر ، وذلك في مستقبل سنة ست وسبعين . وسندكر قصته في مكانها إن شاء الله تعالى .

(١) الضبط من مراسد الاطلاع ١٢٩٩/٣ ، حيث عرفها بأنها مدينة بالغرب في برافريقية قريبة من قلعة بنى حماد بينها وبين طينة ثمانية فراسخ .

(٢) لعلها « زغادة » التي قال ابن عبدالحق البغدادي : مراسد الاطلاع ٦٦٧/٢ في تعريفها انها بلد في جنوبى افريقية والمغرب .

[و] فيها^(١) عزل سليمان بن جاووش عن نيابة الوزارة ، وسبب ذلك أن أستاذ الدار أبا الفضل كان يكرهه فحسّن للخليفة عزله وقال : « إن هذا رجل قد كبر وعجز عن التدبير للدولة ، فتقدم إليه يُستبدل به من شاء ، » فتقدم أستاذ الدار إلى مقرب الدين بن بختيار بإحضار أبي المظفر هبة الله بن محمد بن البخارى ، فأحضره ليلاً إلى دار الخليفة ، فبقى فى الدار ثلاثة أيام (١٦) ولا يعلم أحد ؛ ثم أنفذ فى اليوم الثالث فأمر بعزل سليمان بن جاووش فعزل من الديوان العزيز ، وركب ابن البخارى مجلس فى الديوان نائب وزارة ، وأفردت له الدار التى كانت لابن هبيرة فى المطبق^(٢) ، فكان لا يخرج عن أوامر أستاذ الدار ولا ينفرد بأمر دونه .

• • •

وفىها تراخت الأسعار جداً ، وكثرت الأمطار ، وأخصبت البلاد ، ونمت الزروع . .
وفىها أمر الخليفة بالخلع والتشريفات على الأمراء وأرباب الدولة ، وضاعف أرزاق الممالك وغيرهم .

وفىها أمر بإخراج السراشق الشريف ، وكان سرادقا عظيما لم يعمل مثله ، وكان من الأطلس المختلف الألوان ، وأمر أن يُضرب [السراشق] عند الكشمك الجديد قريبا من الميدان ، وأن يُخرج الأمراء والممالك وأرباب الدولة خيامهم فحضر هناك ، وتقدم إلى أرباب الدولة أن يتأهبوا للركوب فى الخدمة الشريفة وأن يحضروا إلى باب النصر ؛ وركب الناس لامثال الأمر وذلك فى أول شهر ربيع الأول من السنة ، وحضروا إلى باب النصر ففتُح لهم ، وخرج الخدم وتقدموا إلى الأمراء وأرباب الدولة بالدخول إلى الحرم ، وأن يكون مقامهم فى « بستان الأربعين » ، فدخلوا وكان فى جملتهم

(١) أى فى سنة ٥٧٦ هـ .

(٢) المطبق هو السجن .

الأمير قاسم بن مهنا العلوي الحسيني : أمير مدينة الرسول صلوات الله عليه وسلامه ، فخرج الخليفة وعليه جبّة يضاء وطميسان أبيض ، وبين يديه أستاذ الدار أبو الفضل بن الصاحب والخدم ، وبين يديه : عن يمينه وعن شماله ، فقام الناس وقبلوا الأرض وخدموا ودعوا ، وكان أولهم خدمةً جلال الدين أبو المظفر بن البخاري نائب الوزارة ، فتقدم وقبل الأرض ثم [قبل] الركاب الشريف ، ثم تلاه الأمراء وأرباب الدولة فخدموا ودعوا والخليفة لا يردّ على واحد منهم جهرًا ولا يسمع منه منطلقًا ، حتى تقدم الأمير قاسم أمير المدينة فقبل الأرض ، ثم (١٦ ب) قبل الركاب الشريف ، ثم دعا وأحسن وأبلغ في دعائه ؛ فوقف له أمير المؤمنين ورد عليه السلام جهرًا ، ورفع يده فوضعها عليه وأحسن له البشرى ، ثم مضى راكبًا والناس بين يديه مشاة حتى خرج من باب النصر ، فأشار إلى أستاذ الدار أبي الفضل بالركوب فركب ، ثم ركب بعده نائب الوزارة ثم الأمراء وأرباب الدولة ، وسار فخرج إلى ظاهر بغداد إلى أن وصل إلى الميدان الذي فيه الكشك فدخل إليه ، ولم يدخل معه إلا أستاذ الدار ابن الصاحب ، ثم دخل إلى الكشك فبقي فيه ذلك اليوم وبات فيه .

فلما أصبح ركب في الميدان وجعل يسير فيه ، ثم أذن للناس من الأمراء وأرباب الدولة بالدخول إلى الميدان فدخلوا ، فكان أستاذ الدار عن يمينه ، وابن البخاري عن شماله .

ثم إنه خرج في يومه ذلك إلى الصيد ومعه جماعة الأمراء والمماليك ، ولم يخرج معه من أرباب الدولة سوى أستاذ الدار ابن الصاحب ، وكان في كل يوم يتصيد ويرجع إلى الكشك ، فلم يزل ذلك إلى يوم الجمعة ، فتوجه إلى جامع الرصافة لصلاة الجمعة ، وكان يومًا مشهودًا ؛ فلما قضى صلاة الجمعة — وكان الخطيب يومئذ أبو الفرج بن المنصوري — أمر أن تُهيأ له

سمارية^(١) خفيفة فنزل بها وسار في دجلة ، والأمراء في السماريات بين يديه يسرون في خدمته ، وكان [الخليفة] جالساً في صدر السمارية في قبة سوداء ، وأستاذ الدار قائم بين يديه وكذلك جماعة (٢)

... ..

(١٧). [ثم] أفاض من كرمه على جميع من كان من أصحاب ابن قرا أرسلان مالم ينحصر : من مركوب وكراع وثياب ومتاع وغير ذلك ، وعمل والدي الملك المظفر لابن قرا أرسلان دعوة جملة أيضاً ، وحمل له عشرة آلاف دينار ، ثم عمل ناصر الدين محمد بن شيركوه : - ابن عم السلطان [صلاح الدين] - له دعوة عامة ، وأفاض عليه مالا جزيلاً ، وكذلك عمي عز الدين فرخشاه عمل له دعوة وأوسع له العطاء ولمن كان معه ، ولم يزل السلطان هناك في تلك الأيام يندل الجود في اقتناء المحامد إلى أن وصلت رسل قلع أرسلان بالطاعة والإذعان لما أراه السلطان من أمر نور الدين بن قرا أرسلان ، وكان المنفذ من جانبه الأمير اختيار الدين حسن بن غفراس وكان كبيراً مقدماً عند ملك الروم ، وكذب له السلطان عهداً أكد فيه الشرائط بالاتفاق فيما بينهما ، وانصرف هو وأصحابه بالنحف والخلع والنشريفات الجميلة وعاد كل منهم إلى جنته .

* * *

(١) السمارية هي المعروفة في مصر بالعمامة أو الذهبية .
(٢) الظاهر أن هنا سقطاً في اللوحات ذلك لأن الكلام - ابتداءً من هذه اللوحة ١٧ - إنما هو عن صلاح الدين .

ذكر دخول السلطان

الى بلد الأرمن ونزوله على حصن العاتقر (١) وفتحه

ولما انفصل الأمر بينه وبين قلعج أرسلان توجه إلى بلد الأرمن لاستنصاله ، وذلك أن متملك (٢) الأرمن ابن لاون استمال قوما من التركان ليكونوا في مراعى (٣) بلده وأمنهم على ذلك ، فلما استقروا لم يشعروا به إلاّ وقد صبحهم (٤) بغدره فأسرهم واستحوذ على أموالهم ، وكانت شكاية المسلمين قد كثرت عليه من سوء أفعاله بهم ، فرأى السلطان الآولى دخول ولايته ، فسار إليه بعساكره المنصورة وخيم على النهر (١٧ب) الأسود (٥) ، وأباحهم بلاد (٦) الأرمن ، وكان بقره حصن القابوس ، وعلى ذلك الجبل قلعة (٧) شاختة وهى من الحصون الحصينة والمعقل المنيع ، وكان الأرمنى قد أمر أهلها بالنزوح عنها وأضرها نارا ، فبادر الناس إلى إخراج غلاتها وإبراز مودعاتها ، فانتفع العسكر بالزاد والعلاف ، وأمرهم السلطان بهدم الحصن وتخريبه وتخربوه ، فما برح حتى صار عاليه سافله وعن آثاره ، وأقام على عزم الدخول إلى بلادهم ، وأذعن ابن لاون

(١) من غير تنقيط فى الأصل ، وقد وردت فى أبى شامة : الروضتين ١٦/٢ برسم « المناقير » وعلى هذه الصورة الأخيرة اثبتها الدكتور جمال الدين الشيال فى نشره لابن واصل : مفرج الكروب ٩٩/٢ .

(٢) كان ملك الأرمن فى ذلك الوقت ليون الثانى Leon II Roupenian وذكر أبو المحاسن فى النجوم الزاهرة ٢٧/٦ ، أن هذه البلاد هى سيس بين حلب والروم من جهة الساحل .

(٣) وذلك على حصانتها وصعوبة مضايقتها كما يقول ابن خلدون فى تاريخه ٢٩٥/٥ .

(٤) تشابه اللفاظ خبر استمالة لاون للتركان وغدره بهم فى كل من المضمار وأبى شامة : الروضتين ١٦/٢ ، س ١٤ - ١٥ .

(٥) سيميه المؤلف بعد قليل (ص ٤٣ س ٧) باسم « كوك سو » ، وهو المعروف باسم « كوك صو » Gunek Su ، انظرلى سترانج : بلدان الخلافة الشرقية ص ١٤٨ . (٦) فى الأصل « بلاد » .

(٧) هى القلعة التى يسميها أبو شامة فى الروضتين ١٦/٢ بالمناقير (راجع حاشية رنم (١) واكتفى ابن خلدون : تاريخ ٢٩٥/٥ بقوله « كان لابن ليون حصن وفيه ذخيره » وكذلك ابن الأثير : الكامل ١٩٠/١١ ، اذ قال « فخاف ابن ليون على حصن له على رأس جبل أن يؤخذ فخربه وأحرقه » .

بالطاعة ، وأرسل بإطلاق الأسارى المسلمين من التركمان فلم يقنع منه بعد ذلك إلا بخمسمائة أسير ، فأطلق الحاضرين عنده ، ونفذ الرهائن على خلاص الباقين ، واستقر الأمر على ذلك وكتب له الأمان ^(١) ، وكفى الله المؤمنين القتال . وكان [هذا] من لطف الله تعالى لأن الوقت متعسر ، والقوت متعذر ، والعلف معدوم .

* * *

ذكر وفاة سيف الدين غازى بن مودود بن زنكى :

ووصلنا رسول ^(٢) مجاهد الدين قىماز ونحن نخيمون على كوك ^(٣) سو من حدود الروم ، فخير السلطان بموت سيف الدين غازى ^(٤) صاحب الموصل وجلس أخيه عز الدين مسعود ^(٥) مكانه ، وكان الرسول فخر الدين أبوشجاع بن الدهان [البغدادى] ومعه نسخة اليمين التى حلف السلطان له بها فقال : « نسألك إبقاء أخيه على ولايته ولا تغير عليه » ، فقال له : « يميننا منوطة بأيام الحياة ، وولاية أخيه عز الدين بغير ^(٦) عهد منه ولا عقد ،

(١) كان ذلك فى جمادى الآخرة سنة ٥٧٦ هـ حسب رواية الكامل لابن الاثير ١١/١٩٠ ، أما ابن واصل : مفرج الكروب ٢/١٠٠ فقد حددته بالعاشر من جمادى الاولى .

(٢) هو الشيخ الفقيه فخر الدين أبوشجاع بن الدهان البغدادى كما سيرد بعد قليل ، انظر أيضا ابن خلكان : وفيات الاعيان .

(٣) راجع الحاشية رقم ٥ ص ٤٢ .

(٤) كانت وفاته بالسل فى الثالث من صفر سنة ٥٧٦ هـ بعد حكم دام عشر سنوات وثلاثة أشهر ، راجع الكامل لابن الاثير ١١/١٨٨ ، والباهر ص ١٨٠ ، ومفرج الكروب ، ٢/٩٢ ، وابن خلكان ، والشذرات .

(٥) فيما يتعلق بالظروف التى أحاطت باختيار عز الدين مسعود ولاية الموصل ، راجع ابن الاثير : الباهر ، ص ١٨١ .

(٦) هذا يخالف رواية ابن الاثير فى الكامل ١١/١٨٩ ، وفى الباهر ص ١٨١ ، اذ يشير الى أن سيف الدين غازى عهد بالملك لأخيه عز الدين « لما هو عليه من كبر السن والشجاعة والعقل وقوة النفس » ، راجع أيضا ابن واصل : مفرج الكروب ٢/١٩٣ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ٦/٢٨ .

ونحن نرى رأيًا فيما نعتمده بعد مطالعة^(١) الديوان في ذلك ، . وأعاد الرسولَ بالإكرام ، وشرع في العود إلى الشام .
ثم رحل السلطان بالنهر والظفر وسار على أعمال حلب ؛ وكان وصوله إلى أعمال حماة في النصف (١١٨) الأول من جمادى الآخرة من السنة ، ثم رحل من أرض حماة متوجهاً إلى حمص ، ف ضرب مخيمه على عاصيها بالقرب منها ، وجاءته رسل الأطراف والجوانب بالتهنئة له بما رزقه الله تعالى من النصر ، وجاءه العلماء والفقهاء والشعراء يهنئونه ويمتدحونه فكان في جملتهم الفقيه المذهب ابن أسعد الموصلي ، وكان غزير الفضل وافر العلم ، وكان السلطان كلما عبر حمص أمر له بمائة دينار مهربية وخلعة وعمامة ، فيها مدح السلطان به قصيدة^(٢) مستحسنة مطلعها :

أما وجفونك المرضى الصبح
وسكرة مقلتيك وأنت صاحي
وما في فيك من برَدٍ وشهد
وفي خديك من ورد وراح
لقد أصبحتُ في العشاق فردًا
كما أصبحتَ فردًا في الملاح
فما أسلو هواك بنهي ناهٍ
ولا أهوى سواك للحي لاهي
ولا قلَّ الملام غرار غيبي
ولا نلم العتاب شبا جماحي
أما اللاممين عليك عقل
فيشتغلوا بعشاق القباح

(١) أرسل صلاح الدين المطالعة بهذا الشأن لصديقه صدر الدين عبد الرحيم شيخ الشيوخ وهي من انشاء العماد ، وقد أورد بمضا منها أبو شامة في الروضتين ١٧/٢ .
(٢) أورد أبو شامة ، الروضتين ؛ ١٦/٢ - ١٧ منها ثمانية عشر بيتا فقط .

أطعّت هوى الملاح طوال دهرى
 ومن يُطعم الهوى يعصر الملاحى
 فياسقى بذى طرف سقيم
 وبافلقى من الفلق الوشاح
 يهزّ الغصن فوق نقاً ويرنو
 بحدّ ظباً ويسم عن أقاحى
 مليح الوجه معشوق المراح
 وحلو اللفظ معسول المزاح
 يحبّ الراح رائحة بكأس
 ويهوى الكأس كاسية براح
 (١٨) وقد غرس القضيّب على كئيب
 فأثمر بالظلام وبالصبح
 ومال مع الوشاة ولاعجيب
 لغصن أن يميل مع الرياح
 ألام على اقتضاحى فيه لسن
 يقيم عذاره عذراً اقتضاحى
 أليس لحاظه جرحته فؤادى
 فلا برئت ولا اندملت جراحى
 إذا مازاد تعذيبى وهجرى
 يزيد إليه شوقى وارتباحى
 وكم يهواه من عان معنى
 بيت يخاف إطلاق المراح
 وليلة زارنى بعد ازورارى
 على حكى عليه واقتراحى

فَبَتْنَا لَا الدُّنُو مِنْ الدُّنَايَا
 نَرَاهُ ، وَلَا الْجَنُوحَ مِنْ الْجَنَاحِ
 يُدِيرُ كُؤُوسَ فِيهِ وَمَقْلَتَيْهِ
 فَيَسْكُرُنِي عَنْ السَّكْرِ الْمَبَاحِ
 وَكَانَتْ لَيْلَةٌ لَأَحْسَبُ فِيهَا
 عَلَيَّ وَلَا اجْتَرَأُ عَلَى اجْتِرَاحِ
 وَمَا مِنْ شَيْعَى خَلَعَى عَذَارَى
 وَلَا لَبُسَ الْخَلَاعَةِ مِنْ مَرَاحِي
 قَطَعْنَا اللَّيْلَ فِي عَتَبٍ وَشَكْوَى
 إِلَى أَنْ قِيلَ : « حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ »
 وَلَاَحَ الصَّبْحَ يَحْكِي فِي سَنَاهِ
 صَلَاحَ الدِّينِ يُوسُفَ ذَا الصَّلَاحِ
 هُوَ الْمَلِكُ الَّذِي أَوْرَى زِنَادَى
 وَفَازَتْ عِنْدَ رُؤَيْتِهِ قَدَاحَى
 يَقْرَبُ جُودَهُ أَقْصَى الْأَمَانَى
 وَيُضْمِنُ بَشْرَهُ أَسْنَى النَّجَاحِ
 وَمَبْسُوطٌ - بِنَائِلُهُ - يَدَاهُ
 إِذَا انْقَبَضَتْ بِهِ أَيْدَى الشَّحَاحِ
 وَلَمَّا ضَاقَ حَدُّهُ عَنْ مَدَاهِ
 لَقَيْنَاهُ بِآمَالِ فِسَاحِ
 (١١٩) فَمَنْ هَرَمَ وَكَبَّ وَابْنَ سَعْدِ :
 رِعَاةُ الشَّاةِ وَالنَّعَمِ الْمَرَاحِ ؟
 جَوَادُ بِالْبِلَادِ وَمَا حَوَاتِهِ
 إِذَا جَادُوا بِالْبَانِ اللَّقَاحِ

وأبلج يستهين الموت ، يلقى
بصفحة وجهه بيض الصفاح
ويخشى من دنو العار فيه
ولا يخشى من الأجل المتاح
وقوال - إذا الأبطال فرّت - :

« مكانك ثبته » ، ما من برّاح ،
بأس مذهل الأُسْدِ الضواري

وسنب مخجل سيل البطاح
فيللاً حين والراجين منه

أعز حمى وأكرم مستاح
من النفر الذين إذا تجلّوا

أعادو الليل أحلى من صباح
أضاء الدهر بعد دجاء نور

يلوح على وجوههم الصبّاح
تفيض بطون راحتهم نوالاً

ويستلم الملوك ظهور راح
إذا ما لاقوا الأعداء عادوا

بآى النصر والظفر الصراح
بأرماع محطمة ، ويبض

مثلة ، وأعراض صحاح
ليُفد حياة وجهك كل وجه -

إذا سُئلَ الندى - جهيم وقاح
ملوك جلّهم مغرى بظلم

ومشغول بلهو أو مزاح

إذا ماجالت الأبطال ولي
 ويقدم نحو جائلة الوشاح
 يرى الإنفاق في الخيرات خسرأ
 وأنت تراه من خير الرياح
 همو جمعوا ، وقد فرقّت لكن
 جمعت به الرجال مع السلاح
 (١٩٠) وبون بين مالك بيت مال
 ومالك رقّ أملاك النواحي
 وباغ أن ينال^(١) بلا رجال
 كباغ أن يطير بلا جناح
 قرنت شجاعة وتقى وعلمأ
 إلى كرم الخلائق والسماح
 وقد أثنت عليك ظى المواضى
 كما ثنى بألسنة فصاح
 وكم ذلت من ملك عزيز
 وكم دوّخت من حيّ لقاح
 وكم لظباك من يوم اغتباق
 من الأعداء أو يوم اصطباح
 تبيح حمى الملوك وتسليه
 وما تحميه : ليس بمستباح
 وما خضع الفرنج ليدك حتى
 رأوا مالا يطلق من الكفاح

(١) في الأصل « يدال » .

وما سألوك عقد الصلح ودا
ولكن خوف معلة رداح
ملأت بلادهم - سهلاً - وحزناً -
أسوداً تحت غابات الرماح
على معتادة جوب الموائى
دواح بالملأ بيض الأدايح
ألا ياسيل نخجل كل سيل
تظل المحجرات له صوايح
وياغيث البلاد إذا اقشعرت
وضن الغيث فى شهرى قحاح
تركتُ بنى الزمان ولم أسلهم
ولم أر أهله أهل امتداح
وقلتُ للاغبات العيش : روحى
إلى باب ابن أيوب ترايح
ولم أنكح لثيماً بنت فكر
وإنكاح اللثام من السفاح
وقد جاءتك باكفواً كفى
تُزف إليك طالبة امتياح
(١٢٠) وقد صادفت بحر ندى فرائاً
فما طلي لأوشال ملاح
سألتك أن تجود جديب حالى
فأمرع مرتعى واخضر ساحى
ولولا جود كفك كل حين
يروى غلتي وجوى التباحى

بقيت^(١) مدى الزمان حليف فقر
نخبصا عارياً ظمآن ضاحي
وما أشكو الزمان وأنت فيه
وإن أصبحت مقصوص^(٢) الجناح
فقد ضاعت علوم طال فيها
غدوى ، واستمر لها رواحي
أرى المتقدمين اليوم دوني
فيؤلمني خمولى واطراحي
وأشجى من ضياع العمر حتى
أغص يارد الماء القراح
وأعجب من صروف الدهر حتى
أكاد أقول : « مازمني بصاحي ،
أيظهر في السماء ضحى سهاها
ويخفي وهي طالعة براح
عسى نعاك تسكني دمشقاً
وذاك - لكل مالبقيت - ماحي
أعيش معاشر العلماء عمري
وأرباب المحابر والسماح
بقيت منعماً أبداً وأضحى
عداك بكل ضاحية أضحى
ثم إن السلطان أقام بحمص إلى آخر جمادى الآخرة ، وتوجه
إلى دمشق فكان دخوله في أول رجب .

* * *

(١) هذا البيت جواب للبيت السابق ، وينقص دخول اللام على أوله .

(٢) « مقصوص » في الأصل .

ذكر وصول رسل الخلافة الامامية الناصرة لدين الله

وكان وصول الرسول من دار الخلافة المكرمة صدر الدين شيخ الشيوخ
أبي القاسم عبد الرحيم ومعه شهاب الدين بشير الخادم الخاص إلى دمشق في شهر
(٢٠٠ ب) رجب بعد أيام من قدوم السلطان ومعه التفويض^(١) والتقليد^(٢)
والتشريف ، وكان وصوله إلى دمشق كيوم عيد ، فتلقاه السلطان بالتعظيم
والتبجيل وترجل له وأبدى الخضوع ، وترجل عند ذلك شيخ الشيوخ
وبشير الخاص ، وسلموا عليه من أمير المؤمنين - صلوات الله عليه - فقبل
الأرض ثم ركبوا ودخلوا دمشق ، فأنزله السلطان أكرم منزل ، وركب
ثاني يوم وصوله بموكبه وعليه الملابس النبوية والتشريفات الإمامية ،
وكان قد عزم على قصد الديار المصرية ، فحسن لشيخ الشيوخ مصاحبته ورغبه
في زيارة الشافعي رضوان الله عليه ، فضى في صحبته إلى مصر للزيارة ،
وتوجه منها إلى مكة - شرفها الله تعالى ، وذلك بعد ما سير السلطان في جواب
رسالته إلى الديوان العزيز ضياء الدين الشهرزوري صحبة شهاب الدين بشير.

فصل

من الكتاب السلطاني إلى الديوان العزيز المنفذ على يد ضياء الدين
وذلك بعد استيفاء أقسام الخدمة الإمامية :

« قد سبقت مطالعته بما انتهى إليه من أداء الفرض ، وتقبيل
الأرض ، والإفاضة في شكر ما أفيض عليه من التشريفات التي اسحبته ذيل
الفخار ، وأصحبته الشرف السامي المنار ، وأحظته بالإيثار ، وحضته على
العبودية الحميدة الآثار ، المأمونة العثار ، وما أسعده وقد خص برسالة الجانب
المحروس الصدري شيخ الشيوخ شرقاً وغرباً ، وسفارته التي زادها وجه

(١) أي أن يفوض السلطان إليه أمر سروج والرها واردة وحران والخابور ونصيبين .

(٢) التقليد هنا بمعنى الرسوم بتولية شأن من شأن الدولة . أما فيما يتعلق
بالخلة التي كانت أول خلة يقدمها الخليفة الناصر لصالح الدين فراجع أبا شمسمة :

استبشاره سفوراً ، وأمد استظهاره واستنصاره قوةً وظهوراً ، وطرف استبصاره ضياءً ونوراً ، فإنه (١٢١) وإن كان قد تنهى في العبودية إلى مدى لا مزيد عليه لمستريد ، ولا مطمع في توقّل هضباته لمريد ، غير أنه بالوفود الصدى ارتفع قدره ، وانشرح صدره ، ونظم في سلك الأبرار أمره ، وسر سره ، ونصر نصره ، وتوالى لما أولاه مولانا الإمام من مقدم مثله عليه شكره ، وأظلمه على أسباب في الإخلاص ما تجد سوى الخادم لها أهلاً ، وعاد ببركة قدومه كل صعب سهلاً ، وأصبح أمله منه بعبء النجم مستقلاً ، واستجلى بفرّته المباركة عزة البركة ، واستحلى لعزة قدومه الميمون عزة المملكة ، وقد توجه الخادم إلى الديار المصرية لتجديد النظر فيها ، وترتيب مصالحها وتوخيها .

ومنه :

« وقد ندب القاضي ضياء الدين [الشروزورى] ينوب عنه في رفع الأدعية والقيام بشرائط العبودية ، وقرر معه من أسباب الخلوص وأسرار العموم والتخصّص ، ما ينبيه ، وينتهى إلى غاية الحد فيه . »

* * *

ذكر رحيل السلطان الى مصر

ولما تمّ عزمه على قصد الديار المصرية خصّ عزمي عز الدين فرخشا^(١) بالنيابة عنه في الشام ، وقلّده أمر الاجتاد وولاية الأعمال ، وأمر والدى الملك المظفر بالرجوع إل حماة وملازمة ثغرها والنظر في أمورها وترتيب أحوالها ، وكان خروجه من دمشق يوم الاثنين ثامن [عشر]^(٢) شهر الله

(١) انظر ابن واصل : مفرج الكروب ١٠١/٢ ، ويعزو ابن الاثير : الكامل ١١/١١١ سبب عزم صلاح الدين على السير الى مصر ما بلغه من وفاة أخيه شمس الدولة تورانشاه ابن أيوب بالاسكندرية ، وكان قد أخذها انقطاعاً منه .

(٢) في الاصل « ثامن شهر رجب » فقط . والتصحيح بناء على ما ورد في ابن واصل ١ مفرج الكروب ١٠١/٢ ، والمقريزي : السلوك ٧١/١ ، ويستدل من عبارة لابن الاثير ١١/١١١ على أن مسيرته اليها كانت في شعبان وليس في رجب .

الأصب رجب ، ووصوله إلى القاهرة يوم الخميس ثالث عشر شعبان ، واستقبله من بها من العساكر والأكابر ، وكان نائبه بها يومئذ أخوه^(١) الملك العادل ، وأقام السلطان بمصر مشغلا بمصالح الدين والدولة والجلوس في دار العدل يومى الإثنين والخميس لتشييد منار (٢١ ب) الحق وتفريج الكرب وإسداء المعروف وكشف المظالم ، فلم يزل بمصر إلى آخر السنة المذكورة .

وفىها عاد السيد أبو يعقوب إلى مراکش وذلك فى أواخرها .

• • •

واقعة (٣) قراقوش المظفرى فى هذه السنة

وفىها توجه شرف الدين قراقوش إلى دمر ورزىقا وقابس وذلك بعدما نفذ إلى إبراهيم ، وجدد فيما بينهما التمين والمواثيق بأنه لا يقدر أحد منهما بصاحبه وقال : « تركت هذه البلاد وأهل بقلعة أم العزّ فى وديعتك وأنا متوجه ، فإن فتح الله تعالى علىّ واستغنيت عنها أعطيتك الجميع ، وسار فوصل إلى دمر وكان بها مقدّم سلطان يقال له « عثمان » ، وله قلعة منبعة وبلاد كثيرة فاستولى على البلاد كلها ، وبقي عثمان فى القلعة فلم يقدر عليها ، وكان بدمر إنسان مقدّم يسمى « فروخا » له قلعة ليست^(٢) بالحصينة وكان عدوًّا لعثمان ، فوصل إلى شرف الدين وأطاعه وحالفه ، وعلم عثمان بذلك فقامت قيامته ، وخرج من قلعته يستنفر البربر ويقول لهم : « إنما هؤلاء العزّ قافلة ، فلما سمع شرف الدين بخروج عثمان من قلعته

(١) وهو سيف الدين أبو بكر بن أيوب .

(٢) لم يذكر ابن الأثير هذا الخبر .

(٣) فى الأصل « ليس » .

وإبعاده عنها قال : « إن لم أدرك الفرصة منها الآن ما أعود أقدر عليها » ،
فرحل من الموضع الذى كان فيه واستقبل طريقها ، فلما وصلها أخذ ربضها
من ساعته وأطلق يده بالقتل ، فقتل من البربر الذين بها ما زادت عدته على
ألفى رجل ؛ وكان سكان هذا الجبل وجبل نفوسة ومطماطة وزنزفا وملاقة
ومقرة وعربان ، وكلهم خوارج يلغنون علماً عليه السلام .

ولما رأى (١٢٢) أهل القلعة ما حلّ بأهل الربض من القتل والنهب
ارتاعوا واعتقدوا أن لا منجأ لهم ، وكانوا غير خبراء بحفظ القلاع ،
فراسلوه على أنهم يأمنون على أنفسهم وأموالهم فأمنهم ، وانتهز الفرصة
فيهمهم وما جاء الليل [حتى] ^(١) خرجوا من القلعة بما قدروا عليه ، وأطلقوا
جملة من خيلهم ومتاعهم ، وبقي الثقل من الغلة والأثاث ، فأخذ منه ما قدر عليه
وبقيت القلعة في يده .

وسمع عثمان ما جرى في قلعته وربضها فضاقت عليه الأرض ، وما كان
له سبيل إلا مرأسلة شرف الدين قراقوش وسوا له العفو عنه ، وأن يكون
غلاماً له ، وأن يكون الجبل كله في طاعته ؛ فأمنه وأعادته إلى قلعته وخلع عليه ،
وأحضر له أهل الجبل من أطاعه منهم واستحلفه على الطاعة ، وأعطى البلاد
الآجناد إقطاعات ، وسار به إلى ما بقى من القلاع العاصية ، فنزل على قلعة
العطش وهى قلعة عجيبة ، حكى لى بعض أصحابى عن أئق به بعد ما أقسم بالله
أنه ما رأى بالشام قلعة أعلى منها ولا أحصن ، فنزل تحتها ، وهى عالية جداً
لا يصل إليها النشاب ، فأقام تحتها ثمانية عشر يوماً لا يقاتلها لأنها لا تقاتل ،
فاتفق في اليوم التاسع عشر أن إنساناً من عبيد شرف الدين تحيّل وتسلق في
الجبل الذى عليه القلعة ، ولم يزل يتسلق من موضع إلى موضع إلى أن قارب
سورها ، واختبى تحت قلاعة لا يصل إليه حجر لأن النشاب عندهم قليل ،

(١) غير واردة بالأصل وقد أضيفت ليستقيم المعنى .

فلما رأى الناس ذلك العبد قد تسلق انهاروا في دفعة واحدة وصعدوا الجبل كما صعد [العبد] فصار عنده جماعة ، وما كان نصر أهل القلعة كون أولئك صاروا في ذلك الموضع إلا أن الله تعالى خذلهم ، فلما شاهد من بالقلعة أولئك نادوا (٢٢ ب) وطلبوا الأمان ، فقطع عليهم فطبعة أعطوه مبلغها وأبقاهم على حالهم في قلعتهم بعد أن استحلقتهم على الطاعة ، وأقطع عملها الأجناد ، ورحل عنها إلى قلعة يقال لها أم لامة ، فنزل قريباً منها وهي في الحصانة على حالة لا يقدر الإنسان عليها ، فأقام تحتها مدة شهر وهو لا يقدر على قتالها ، بل يغتم الأجناد من البلاد وينهبون الضياع ويأخذون البربر يقتلونهم بالسيف والدخان في المغاير ، وكان صاحب هذه القلعة له نسب متصل بمنية - قبيل من البربر - في جبل من جبال قفصة يزيدون^(٢) على عشرين ألف راجل ، ففدز إليهم واستمرت كتبه إليهم يستدعيهم ، فوصلوا بعد هذه المدة .

وأصبحوا في باكر يومهم ينسلون من كل حذب من الجبل ، فرأى شرف الدين وأصحابه ما نالهم من كثرة البربر ، وكانت الطرقات التي ينزلون منها من الجبل كلها وعرة ، ولم يكن بها طريق سهل إلا طريق واحدة تقدر الخيل على الركض فيها والصعود فيها ، فاستقبلها شرف الدين بجماعة بمن معه ، وبقي جماعة في الخيم قائمين لحفظها ولم يكن بالعاجز إلى أن وصل إلى تلك الطريق ، وقصد من كان بها نازلاً فانهزموا طالعين من حيث كانوا نزلوا ، فلحق منهم جماعة قتلهم هو وأصحابه ، وأخذوا عشرين رجلاً أسرى ، وكان من الأسارى صبي أمرد مليح الصورة عليه شعر طويل كثيف ، وجاء إلى الخيمة وقد انهزم كل من جاء من الرجال من كل طريق نزلوا منها بانهزام من هزمه شرف الدين من الطريق السهلة ، فلما وقف

(١) يقصد من يمت منهم له بالنسب من هذه القبيلة .

تحت القلعة - [وقد] أشرف أهلها منها عليهم كلهم من ناحية الخيم -
قال الأمير جندار : « أقتل واحداً واحداً » ، فلم يزل يقتل واحداً واحداً
إلى أن قدم الصبي الأمرد وهو مع ذلك يضحك غير مكثرت بالقتل ، فصاح
أهل (١٢٣) القلعة : « أمسكوا عن قتله » ، ونزل واحد من القلعة وقال
لشرف الدين : « نحن نفتدى هذا منك بعشرة ألف دينار ، فقال شرف
الدين : « ما أفعل » ، فبلغه إلى عشرين ألف دينار فقال : « ما أفعل » ، ثم
قال للأمير جندار : « اضرب عنقه » فصاحوا من القلعة : « لا تفعل ؛ نحن
نفتديه بما تريد » ، فقال : « لا سبيل إلى تركه » ، ثم ضربه أمير جندار ضربة
أبان بها رأسه عن جسده ، فما استتم قتل الباقيين إلا وقد نزل من القلعة شيخ
أحسن ما يكون بين الشيوخ وجاء إلى شرف الدين وقال : « هذه مفاتيح
هذه القلعة خذها ، بارك الله لك فيها فأنا صاحبها » ؛ فعجب شرف الدين
من ذلك وما أعطى أماناً ولا قولاً ، فلم يكن شرف الدين بالعاجز أن نفذ
في فوره من قبل أن يتقصّى من الشيخ ما سبب ذلك ؛ [فجاء]^(١) من أصحابه
مائة رجل طلّعوا إلى القلعة وحين صاروا بها أنزلوا من كان فيها وأغلقوا
بابها وكان بها ذخائر عظيمة .

ثم إن شرف الدين أحضر الشيخ وتقصّى منه بعد ذلك وقال له :
« يا شيخ : ما السبب الذي أوجب أن تعطى هذه القلعة التي ما يقدر عليها
أحد من غير عهد ولا أمان ؟ » ؛ فقال : « إن في قصتي عجباً ، هذا الشاب
الأمرد الذي قتلته : ولدى ؛ وما كان لي ولد غيره . وكان بينه وبين
أولاد أخى معاداة وكنت أوشّر أن تكون هذه القلعة له ، فلما قتلته

(١) أضيفت هذه الكلمة ليستقيم الأسلوب .

علست أننى إن تركت القلعة فى يدى وأصابنى الموت أخذها أولاد أخى بعد ولدى، وما آثرت ذلك، وآثرت أن أمنعهم من ذلك بعده وسلتها إليك ، ، فرق له شرف الدين عند ذلك وقال : دلو أعلم هذا ما قتلته ، .

وأخذ شرف الدين منها أموالا وذخائر عظيمة ، ورحل عنها بعد ما سلبها للشيخ واستحلفه أنه متى (٢٣ ب) طلبها وسير إليه من يكون فيها سلبها إليه ، وتوجه [شرف الدين] إلى قلعة حسن فنزل عليها أياما ولم يقدر منها على شئ ، وكان أهلها ينزلون فيقاتلون فى الوطا ، فرحل عنها ومضى إلى ناحية جهة مطاطة ونازلها ، وهى بلد ما بين قابس وقفصة ، وإلى قابس أقرب مقدار نصف نهار فنزل عليها وقتلها أياما .

* * *

ودخلت سنة سبع وسبعين وخمس مائة :

ففى نقل المستضىء - قدس الله روحه - من الدار التى كان مدفونا فيها إلى الدار العتيقة لبعض الجهات غربى دجلة من بغداد عند رأس الجسر مجاورة للجامع نخر الدولة بن المطلب ، وكانت العادة أن يدفن الخلفاء بمقابر قريش بالمحلة المعروفة بالرصافة ، إلا المستضىء - رضوان الله عليه - فإنه ذكر عنه أنه أوصى بذلك ، وقيل إن الإمام الناصر لدين الله - صلوات الله عليه - اختار هذه الحال لأجل خريده أمير المؤمنين ثلثا تبعد عليها زيارته ولا تجدد من بدله بعد الطريق فاختر ذلك لقربه ، وأقام للموضع فراشين وبوابين فلا يقدر أحد على الدخول لزيارته إلا بإذن ، وأوقف عليه وقفاً كثيرة وجعل لثربته الراتب من الشموع والوظائف من الخزن الشريف ، وعمل على ضريحه صندوقاً من الساج وغرم عليه مبلغاً من المال .